كتاب

معيار الاختيار

في ذكر المعاهد والديار

للمؤرخ الوزير لسان الدين بن الخطيب السلماني
٧١٣ - ٧٧٦ هـ

تحقيق ودراسة
الدكتور محمد كمال شبانة

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

كتاب



في ذكر المعاهد والديار

للمؤرخ الوزير لسان الدين بن الخطيب السلماني
٧١٣ - ٧٧٦ هـ

تحقيق ودراسة
الدكتور محمد كمال شبانة

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

طبعة
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

رقم الإيداع	٢٠٠٢/٧٧٠٧
I.S.B.N الترقيم الدولى	977-341-066-8



الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ ش بورسعيد - الظاهر - القاهرة
ت: ٥٩٢٢٦٢٠ - ف: ٥٩٣٦٢٧٧

مقدمة

ان كتاب « معيار الاختيار فى ذكر المعاهد والديار » لابن الخطيب من اطرف كتب المؤلف الشهيرة ، فقد صاغه على هيئة مقامة ادبية ذات منهاج واسلوب فنى انفرد به لسان الدين روعة وابداعا ، مستهدفا وصف اهم المدن الاندلسية والمغربية جغرافيا واجتماعيا كما رآها وعاصرها فى منتصف القرن الثامن الهجرى (منتصف الرابع عشر الميلادى) . فلم تكن المقامة التقليدية لديه هدفا لذاتها من شعوذة واستجداء كما هى عند الحريرى والهمذانى وغيرهما ، او وعظ وتذكير بالدار الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب كما هى عند الزمخشرى والدمياطى وامثالهما ، بل ان المؤلف كانت غايته علمية بحتة ابرزها فى صورة ادبية ثقافية ممتعة ، وبالرغم من قيود السجع والمحسنات البديعية الا ان وصفه للبلدان فى مناحى شتى قد جاء فى صورة مشوقة تنبض حياة ، وتتالق براعة . ويصف المقرى هذا الكتاب فيقول : « وللسان الدين مقامة عظيمة بديعة ، وصف بها بلاد الاندلس والعدوة ، واتى فيها من دلائل براعته بالعجب العجاب (1) » .

ولقد اورد ابن الخطيب « معيار الاختيار » ضمن مؤلفه الادبى الضخم « ريحانة الكتاب ، ونجعة المنتاب » الذى ما يزال مخطوطا ، وان كان بعض الباحثين قد قام بتحقيق اجزاء منه ، فمن اشهر نسخ « الريحانة » التى ورد بها « المعيار » واقتضت طبيعة التحقيق والدراسة الرجوع اليها فى كل من المغرب (الرباط — فاس) وتونس والجزائر والقاهرة واسبانيا وروما :

1 — نسختان بدار الكتب بالقاهرة .

الاولى : يوجد منها الجزء الاول وبعض الجزء الاخير فى مجلدين ، وبخط مغربى ، فى ثناياها ثقوب ونقص واضطراب ، وهذان الجزآن مصوران بالفوتوستات عن النسخة الخطية المحفوظة بمكتبة تونس ، ويقعان فى 309 لوحة ، مسجلين برقم 19875 ز .

1) النفح : ج 8 ص 315 ط محى الدين — القاهرة

الثانية : بها نقص يسير من الخطبة ، اولها بعد الديباجة : ((..وسميته لتنوع بساتينه المنسوقة ، وتعدد افانينه المشوقة ، بريحانة الكتاب، ونجعة المنتاب)) .. الخ ، وتقع هذه النسخة فى مجلدين كتبا بخط النسخ ، وقد نقلا عن الجزاين المخطوطين المقيدين بدار الكتب المصرية برقم 524 ادب س ، ويقعان فى 460 ــ 650 صفحة ، مسطرتها 21 سطرا ، وقد سجلا تحت رقم 3459 ز ، وقد اتخذنا لهذه النسخة فى التحقيق الرمز ((د)) .

2 ــ نسخة الاسكوريال بمدريــد .

وهى مسجلة برقم 554 من فهرس الغزيرى ، وهى نسخة جيدة للغاية قد كتبت بخط اندلسى باهت ، وتقع فى 281 لوحة كبيرة ، اعنى 562 صفحة ، بكل صفحة 27 سطرا ، وفى كل سطر 12 كلمة فى المعدل العام ، وقد ذكر فى نهاية هذه النسخة انها كتبت سنة 888 هـ ، وقد رمزنا اليها خلال البحــث بالرمز ((ا)) .

3 ــ جزء مخطوط بمكتبة الفاتيكان الرسولية بروما ، مكتوبة بخط مغربى وهى عبارة عن السفر الثالث من ((الريحانة)) ، وعدد لوحاتها 119 لوحــة كبيرة ، مسجلة برقم 252 .

وقد احتوى هذا السفر على ((معيار الاختيار)) ، ورمزنا لهذا المخطوط اثناء التحقيق بالرمز ((ف)) .

4 ــ قطعة مخطوطة اخرى فى مكتبة الجزائر الوطنية من ((الريحانة)) ، تشتمل على 181 لوحة مزدوجة من القطع الكبير ، مكتوبة باكثر من خــط معظمه قديم ، والبعض منها ــ ولاسيما الوسط ــ قد اكمل مؤخرا، او بتاريخ احدث ، وهذه النسخة تشتمل على النصف الثانى والاخير من ((الريحانة)) ، حيث تبدا بالفصل الذى يحمل عنوان ((جمهور الاغراض السلطانيــات)) ، ويغلب على الظن ان هذه النسخة هى اقدم جزء من المخطوط رقم 2010 ، وقد احتوى هذا الجزء ــ ضمن ما احتوى ــ كتاب ((معيار الاختيار)) موضوع الحديث ، وقد رمزنا اليها بالرمز ((ج)) .

5 ــ وفى خزانة القرويين بفاس قطعتان من ((ريحانة الكتاب)) :

الاولى : تضم السفرين الرابع والخامس ، وتقع فى 99 لوحة مزدوجة من القطع الكبير ، فى كل صفحة منها 27 سطرا ، قد كتبت بخط مغربى ، وفى نهايتها تاريخ الفراغ من نسخها ، وهو يوم الاحد قبل الزوال عام تسعة عشر

ومائة والف (لم يذكر تاريخ اليوم او الشهر) وهـي برقـم 40 ـ 565 ، ورمزها ((س)) فى تحقيقنا .

اما القطعة الثانية : فهى برقم 3011 ، وتنطبق عليها نفس اوصاف الاولى ولاسيما الخط . .

6 ـ اما فى الخزانة العامة بالرباط (قسم المخطوطات والمحفوظـات) فتوجد عدة نسخ من ((الريحانة)) ، اظهرها واشهرها النسخـة الكتانيـة المسجلة برقم 331 ك ، وهى عبارة عن مجلد ضخم يتالف من 609 صفحة من القطع الكبير ، وفى كل صفحة 25 سطرا ، قد كتبت بخط مغربى واضح، وبها زيادات حديثة ، اغلب الظن انها ليست من انشاء ابن الخطيب ، ولاسيما الجزء الخاص بذكر ملوك بنى امية والخلفاء من بنى العباس ، وهو غفل من تاريخ كتابته ، اما النسخة الاساسية للريحانة فتقع فى 599 صفحة ، وقد رمزنا اليها بالرمز ((ك))

وتوجد بنفس هذه الخزانة غير التى ذكرنا ـ سبع نسخ من ((الريحانة)) قد اشتمل معظمها على ((معيار الاختيار)) وفيما يلى مـا تضمن منهـا ((المعيار)) :

فاولها : نسخة كاملة عبارة عن مجلدين من الحجم المتوسط ، ويشتمل اولها على 222 لوحة ، مكتوبة بخط مغربى واضح . والمجلد الآخر عبارة عن 215 لوحة من نفس الحجم ، وقد كتب بنفس الخط المغربى الواضح ، وهذه النسخة بمجلديها مسجلة برقم 2195 بالمكتبة الملكية ، وقد رمزنا اليها بالرمز ((ل)) اثناء التحقيق .

وثانيتها : تشتمل على السفرين الرابع والخامس من ((الريحانة)) وعدد لوحاتها 145 لوحة من الحجم الصغير ، ورقم التسجيل 600

وثالثها : عبارة عن النصف الثانى من ((الريحانة)) ، وهى نسخـة تحتوى على الاسفار الرابع والخامس والسادس ، وتقع جميعها فى 186 لوحـة .

ورابعها : نسخة ذات اوراق بالية وقديمة تشمل 40 لوحة كبيرة ، قد كتب على الصفحة الاولى منها ((السفر الثالث من ريحانة الكتـاب)) ، وفى نهاية اللوحة الاخيرة عبارة ((كمل السفر الخامس)) ورقم تسجيلها 6400 .

هذا ، ولا يغيب عن الفكر ان هناك نسخا اخرى من مؤلف ابن الخطيب ((ريحانة الكتاب)) فى حوزة المكبات الخاصة ، جلها فى المغرب الاقصى ، ومعظمها قد انتظم ((معيار الاختيار)) ، بيد انه لا يتسنى للباحث ان يستدل ويطلع عليها فى سهولة ويسر لسبب أو لآخر ، فمن ذلك على سبيل المثال النسخة الجيدة التى بمكتبه صديقى الاستاذ عبد الكبير الفهرى الفاسى بالرباط ، وقد تصفحت سفرا خاصا بـ ((معيار الاختيار)) فوجدتها نسخة قريبة الشبه خطا ونسخا من النسخة الاولى الخاصة بالمكتبة الكتانية التى اشرنا اليها فى ثنايا الحديث عن نسخ الخزانة العامة بالرباط .

ونرى — بهذه المناسبة — ان نذكر أن مؤرخ المملكة المغربية الاستاذ عبد الوهاب بن منصور قد اخبرنا فى صدد ((معيار الاختيار)) بانه سبق ان راى نسخة تكاد تكون فريدة منه لدى احد شيوخ مدينة ((تلمسان)) منذ مدة طويلة ، وترجع اهميتها لكون هذه النسخة قد اشتملت على وصف تلك المدينة وهو ما تنفرد به من دون النسخ الاخرى الخالية منها تماما ، ويعزز رواية الاستاذ عبد الوهاب وجود وصف مدينة تلمسان فى كتاب ((نفح الطيب)) (ج 9 ص 340 — 341) وهو لابن الخطيب كما اثبته المقرى ، والاسلوب فى الوصف على نمط الاسلوب الذى انتهجه المؤلف فى ((معيار الاختيار)) من بداية بالاستفسار : ((قلت فمدينة تلمسان ؟ فاجابة من الراوى : قال : ((تلمسان مدينة جمعت بين الصحراء والريف ، ووضعت فى موضع شريف .. الخ)) ، ثم يعقب وصفه للمدينة بما عودنا من ايراد ابرز المثالب كمثيلاتها ، فقال : ((.. الا انها بسبب حب الملوك ، مطعمة للملوك . ومن اجل جمعها الصيد فى جوف الفرا ، مغلوبة للامراء ، .. الخ)) .

حقا لقد كانت ((تلمسان)) يومئذ ضمن مملكة بنى مرين حينما امتد ملكهم الى الجزائر عام 796 هـ (1393 م) ، واضحى ملك بنى زيان تابعا لبنى مرين ، وبقى الامر كذلك حتى دب الضعف فى الدولة المرينية ، واستبد بنو وطاس ووزراؤهم بالامر ، فهيا ذلك لبنى زيان ان يستقلوا مرة اخرى بأمر تلمسان ، كما هيا مثل هذا الاستقلال للاشراف ان يظهروا فى مراكش بجنوب المغرب (1) .

وقد وفد ابن الخطيب فى ذلك الابان على مدينة تلمسان سفيرا ثم زائرا ، واخيرا عندما لجا فارا من الاندلس ، حيث احتمى بظلال بنى مرين على ما

---

1) ابن خلدون فى « العبر » ج 7 ص 166 ، والذخيرة السنية ص 148 ، والاستقصا ج 2 ص 16 .

سنفصله فى الترجمة للمؤلف من بعد ، الامر الذى يقطع بان المؤلف اورد وصف تلمسان ضمن ((المجلس الثانى)) الخاص باهم المدن المغربية ، كما لا نستبعد من ناحية اخرى ان تاليف لسان الدين للمعيار كان زمن امتلاك المرينيين لتلمسان ، وربما كان ذلك اواخر ايامه ، حيث اتيحت له اكثر من فرصة لدراسة المدينة وسواها من مدن المغرب ، ورسم صورة واقعية لها ، كعهدنا به نحو المدن الاخرى التى تناولها بالوصف فى مؤلفه هذا .

لقد كنت تواقا الى رؤية تلك النسخة ، عسى ان اتمكن من ازالة علامة الاستفهام التى ترتسم حيال بقية النسخ من ((الريحانة)) المشتملة على ((معيار الاختيار)) والتى خلت ــ للاسف ــ من وصف مدينة ((تلمسان)) ، ومن يدرى فربما كانت نسخة الجزائر اقرب من غيرها الى عصر المؤلف ان لم تكن قد نسخت على ايامه ، ولكن ما الحيلة وقد طوى الزمن صاحب النسخة، ولا ندرى بالتالى الى من آلت، هذا ان لم تكن قد انقرضت هى بدورها حيث لم نسمع عنها حتى يومنا هذا من قريب او بعيد ، ولم تتناولها من قبل فهارس المستشرقين ، كما لم تشر اليها اقلام الباحثين من المهتمين بالتراث الاندلسى خاصة .

وعلى اى حال فلا مناص من الحاق وصف مدينة ((تلمسان)) فى نهاية ((المجلس الثانى)) للمدن المغربية ، وذلك نقلا عن ((نفح الطيب)) بنصه ، مقدرا للاستاذ عبد الوهاب بن منصور لفتته العلمية

هذا ، وقد نوهت اثناء عرض الكتاب بـ ((الفصل الثالث)) ان النسخة التى رايت انها اوفى واحق بالاعتماد فى التحقيق ــ مع اعتبار بقية النسخ ــ هى نسخة الاسكوريال (554) .

وقد رايت استكمالا للفائدة ، والماما بما قد يحتاجه الباحث ان اختط فى هذا التحقيق النحو التالى فى اربعة فصول :

الفصل الاول :

وقد اوردت فيه ترجمة تكاد تكون وافية بالغرض لحياة المؤلف ((لسان الدين ابن الخطيب)) .

الفصل الثانى :

وبه بيان لوجهة نظر بعض المستشرقين والباحثين تجاه ابن الخطيب .

الفصـــل الثالـــث :

وقد اوردت فيه دراسة خاصة بـــ ((معيار الاختيار)) فى عرض تحليلى من الناحيتين الادبية والتاريخية ، واهمية الكتاب كعمل ادبى ، ثم كوثيقـــة تاريخية هامـــة .

الفصـــل الرابـــع :

وقد اوردت فيه ((المجلس الاول)) من النص ، وهو الخاص بوصف ((المدن الاندلسية)) .

الفصـــل الخامـــس :

وقد اوردت فيه ((المجلس الثانى)) من النص ، وهو الخاص بوصف ((المدن المغربية)) . وفى ذيلا كـــلا ((المجلسين)) اثبت فى التعليق ما اقتضاه التحقيق ، واستوجبته الدراسة .

ولا يسعنـــــى ــ اذ اقـــدم هـــذا العمـــــل كتـحقيـــق جديد فى مجال التراث الاندلسى ــ الا ان اعترف بالفضل لكل سابق فى هـــذا الميدان ، ولا سيما حيال من اسهموا بدراسة او تحقيق لابن الخطيب ومؤلفاته فقد كانت بحوثهم عونا جديرا بالتقدير ، كما اذكر لاستاذنا العلامة عبد الله كنون فضله فى هذا العمل ، جزاه الله خير الجزاء ، وانوه بسبق الزميـــل الدكتور احمد مختار العبادى ، معترفا بالاستفادة الحقة من دراسته فى هذا الموضـــوع .

اخيرا ، آمل بهذا التحقيق ــ على هذه الصورة ــ لكتاب ((معيار الاختيار)) ان اكون قد اسهمت بلبنة فى صرح الذخائر الاندلسية .

والله اسال ان يجد فيه رواد الفكر وعشاق التراث ما ينشـــــدون او يؤملون ، انه سميع قريب ، وبالاجابة جدير .

وهو ــ سبحانه ــ ولى التوفيق

المحقـــق
دكتـــور محمـــد كمـــال شبانه
استاذ التاريخ والحضارة الاسلامية
بجامعات المغرب

القاهرة /٢-٣-٢٠٠٢

الفصل الأول

حياة ابن الخطيب
وآراء بعض المستشرقين حوله

ابن الخطيب

713 ــ 776 هـ (1313 ــ 1374 م)

ثانى اثنين أرّخا لعصر بنى الأحمر ، فكشفا عن السلالة النصريــة ، حتىعصرهما الذى عاشاه جنباً الى جنب ، ولم ينل من علاقتهما الطيبة سوى التنازع على المزيد من السلطة ، فى دوْلة طالما استبد فيها الحجاب والوزراء وانتقصوا من سلطة السلطان ، فكانت نهايتهم على يــدى من نازعوهم أمــور المملكة ، بايعاز من صاحب سلطة قضائية أو ادارية ، وهذا ما حدث بين ابن الخطيب ، وبين قاضى الجماعة أبى الحسن على النباهى الجذامى ، على نحو ما سنرى من خلال سيرة الأول .

هو لسان الدين أبو عبد الله محمد ، بن عبد الله ، بن عبد الله ، بن سعيد ، بن على ، بن أحمد ، السلمانى ، نسبة الى سَلْمان ، بقعة باليمن نزلت بها بعض القبائل القحطانية ، وكانت أسرة ابن الخطيب احدى هذه القبائل ، ومن اليمن وفدت الأسرة الى الأندلس ، حيث اتخذت قرطبة مقراً لها .

ثم هاجرت الأسرة الى طليطلة ــ كما أخبر بذلك ابن الخطيب نفسه فى مقدمة « الاحاطة » ــ عام 202 هـ 817 م ، وهو العام الذى حدثت فيه ثورة أهل الربض بقرطبة ، ضد أمير الأندلس الحكم بن هشام ، حيث حرض الفقهاء أهل الربض ضد الأمير ، ولكن الحكم قضى على الثورة فى الموقعة المشهورة

ب (موقعة الربض) وشتتت شمل القائمين بها ، فنفى من نفى ، وشرد من شرد ، وغادر قرطبة جمهور من المعارضين وعديد من العلماء ، ومن هؤلاء أسرة ابن الخطيب ، حيث قصدت طليطلة ، فبقيت بها قرابة قرن ونصف ، ولما أحست أسرة المترجم له بالخطر المحدق بالمدينة ـ حيث أصبحت هدفاً للأسبان فى أواسط القرن الخامس الهجرى (أوائل القرن الثانى عشر الميلادى) ـ بادرت بالنزوح عنها الى مدينة لوشة (1) مسقط رأس ابن الخطيب فى 25 رجب 713 هـ (16 نوفمبر 1313 م) .

تربى ابن الخطيب فى أسرة عرفت بالاصالة والعلم والجاه ، فقد كان أبوه عبد الله من أكابر العلماء والخاصة ، كما أخبر بذلك ابن الخطيب نفسه ، حيث ترجم لأبيه فى كتابه (الاحاطة فى أخبار غرناطة) فروى لنا أنه ولد فى (672 هـ = 1273 م) واستقر حيناً فى غرناطة ، ثم عاد الى لوشة مقر الأسرة ، ثم رجع الى غرناطة أخيرا ، حيث التحق بخدمة السلطان أبى الوليد اسماعيل ملك غرناطة (713 ـ 725 هـ ـ 1314 ـ 1324 م) .

وقد كانت أسرته تحمل اسم « الوزير » الى أن جاء جده سعيد فعرفت باسم « الخطيب » .

ولما توفى هذا السلطان ، وخلفه ابنه السلطان أبو عبد الله محمد التحق والد ابن الخطيب بديوان كتابته أيضا ، ثم بأخيه السلطان أبى الحجاج يوسف (733 ـ 755 هـ ـ 1333 ـ 1354 م) ، حيث عاصر الكاتب الكبير والرئيس العظيم أبا الحسن على بن الجيَّاب ، والذى مُنِح من قِبَلِه لقب الوزارة ، وأخيراً سقط عبد الله مع ولده الأكبر ـ أخى لسان الدين ـ قتيلا فى موقعة طريف الشهيرة ، التى تمخضت عن فوز الأسبان على المسلمين من الأندلس والمغرب ، وسقوط كل من طريف ثم الجزيرة الخضراء وقلعة بنى سعيد ، وذلك فى جمادى الأولى 741 هـ (1340 م) .

---

1) تعرف فى الاسبانية اليوم باسم « Loja » ، تقع على بعد 55 كم غرب غرناطة ، وهى احدى المدن الاسلامية الشهيرة أيام حكم العرب ، وقد استردها الأسبان قبل سقوط غرناطة بقليل (891 هـ = 1486 م) ، يقدر عدد سكانها حالياً بعشرين الف نسمة تقريبا ، بينما كان عدد السكان ـ على عهد ابن الخطيب ـ يجاوزون هذا العدد بكثير كما يتضح من تاريخ المدينة يومئذ .

لقد نشأ ابن الخطيب في العاصمة غرناطة ، وتلقى بها دراسته (2) ، فقد كانت وقتئذ ميداناً احتشد فيه الأكابر من العلماء والأدباء ، فدرس اللغة والشريعة والأدب على جماعة من أقطاب العصر ، مثل « أبى عبد الله بن الفخار الألبيرى » شيخ النحاة فى عصره ، « وأبى عبد الله بن مرزوق » فقيه المغرب الكبير ، « والقاضى أبى البركات بن الحاج البلفيقى » ، ودرس الأدب والشعر على الوزير « أبى عبد الله ابن الحكيم اللخمى » وعلى الرئيس « أبى الحسن على بن الجياب » ، وغير هؤلاء . كما درس الطب والفلسفة على حكيم العصر وفيلسوفه الشيخ « يحيى بن هذيل » . فلا نبالغ اذن اذا قلنا : ان غرناطة ــ فى ذلك الوقت ــ كانت أعظم مركز للدراسات الأدبية والعلمية والاسلامية ، فى هذا القطر الغربى من العالم الاسلامى ، وكان هذا من حظ ابن الخطيب الى حد بعيد.

هذا ، وقد تأثر مستقبل ابن الخطيب السياسى بحكم منصب والده ، فمنذ شب عن الطوق ونفسه تطمح للوصول الى مركز أبيه ، فلما توفى الوالد دعى ابنه للخدمة مكانه ، وكان حينئذ فى الثامنة والعشرين من عمره ، حيث تولى أمانة السر لأستاذه الرئيس « أبى الحسن بن الجياب » وزير السلطان ابى الحجاج يوسف الأول النصرى وكاتبه (3) ، ثم خلف أستاذه فى الوزارة ، وتقلد ديوان الانشاء لهذا السلطان ، وكان ابن الخطيب يومئذ قد ملك زمام أرفع الأساليب شعراً ونثراً ، بفضل أستاذه الراحل ، وظهر أثر هذه التلمذة على رسائله السلطانية ، التى حررها بقلمه على لسان ملوك الأندلس والمغرب ، والتى نعتها المؤرخ ابن خلدون بالغرائب ، وقد جمع ابن الخطيب نفسه منها الكثير فى كتابه « ريحانة الكتاب ، ونجعة المنتاب » ، كما أورد المقرى عددا منها فى مؤلفه « نفح الطيب » (4) ، ويعتبر كتاب ابن الخطيب « كناسة الدكان بعد انتقال السكان » مجموعة من الرسائل السلطانية التى تمثل العلاقات السياسية بين غرناطة والمغرب ، فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى ، على لسان سلطانه يوسف الأول ابن الأحمر ، الى معاصره فى فاس أبى عنان فارس المرينى .

---

2) العبر لابن خلدون ج 7 ص 332 .

3) توفى ابن الجياب بوباء الطاعون الجارف ، فى شوال 749 هـ (يناير 1349 م) .

4) ج 3 ص 570 ، وما بعدها ، ج 4 فى عدة مواضع منه

ولقد كسب ابن الخطيب ثقة هذا السلطان الغرناطى ، حيث قربه من مجلسه ، وخلع عليه الجم من النعم ، كما أنه أصبح أثيراً لديه ، مودعاً اياه أمانة سره وكتابته ، وذلك لروعة هذه المكاتبات السلطانية التى دبجها له من جهة ، ولنجاح سفاراته مع ملوك النصارى والمغرب من جهة أخرى ، فقد بعثه عاهل غرناطة سفيراً الى أبى الحسن المرينى ملك المغرب عام 749 هـ (1348 م) .

ولما توفى السلطان أبو الحجاج يوسف قتيلا ـ فى يـوم عيد الفطر 755 هـ (19 أكتوبر 1354 م) ـ خلفه فى الملك ولده السلطان محمد الخامس الغنى بالله ، واستمر ابن الخطيب فى معاونة الوزير أبى النعيم رضوان على خدمة السلطان الجديد ، كما تولى الوصاية على الأبناء القصر للسلطان المتوفى ، ثم قام بسفارة الى السلطان « أبى عنان فارس المرينى » عام 755 هـ = 1354 م ، ولقد نجح ابن الخطيب فى مهمته هـذه نجاحاً عظيماً ، ذلك أن ملك المغـرب استجاب للمطالب التى حملها ابن الخطيب لصالح ملك غرناطة ، وفى مقدمتها العون الحربى لمقاومة أطماع ملك قشتالة .

ولقد ظفر ابن الخطيب بمكانة ممتازة لدى الغنى بالله ، اذ منحه ثقته كأبيه من قبل ، وخلع عليه لقب (ذو الوزارتين) ، لجمعه بين وزارة القلم ووزارة السيـف .

ولكن حدث أن اندلعت الثـورة بغرناطة ، فى رمضـان 760 هـ = 1359 م ، ونتج عنها فقدان السلطان الغنى بالله لملكه ، واستيلاء أخيه الأمير اسماعيل على العرش ، كما تمخضت هذه الثورة عن مقتل الحاجب أبى النعيم رضوان ، ثم فرار الغنى بالله الى وادى آش (5) ، وعليه فأصبح ابن الخطيب لا يملك من الأمر شيئا ، غير أنه حاول أن يستميل السلطان الجديد ، فقبله فى منصب الوزارة مؤقتا ، ثم تشكك بعد قليل فى نواياه ، وذلك بتحريض منافسيه وحساده ، فقبض عليه ، وصادر أملاكه ، وبذلك فقد ابن الخطيب جاهه ونفوذه ، بل ومتاعه بين عشية وضحاها .

---

5) راجع ما كتبناه عن هذه المدينة فى وصف ابن الخطيب للمدن الأندلسية من هذا الكتاب .

لم تطل هذه النكبة بابن الخطيب ، فقد بعث ملك المغرب السلطان أبو سالم سفيره (الشريف أبا القاسم التلمساني) الى ملك غرناطة الجديد ، يطلب اليه أن يسمح للملك المخلوع (الغنى بالله) ووزيره ابن الخطيب بمغادرة الأندلس الى المغرب ضيفين عزيزين ، فرضخ سلطان غرناطة لهذا الطلب ؛ سياسة منه في الابقاء على أواصر الوداد مع بنى مرين ، واحتفاظاً بهم سندا لمستقبل الدولة الاسلامية بالأندلس . ولهذا أطلق سراح ابن الخطيب ، ولحق بسلطانه ، حيث لجأ إلى وادى آش ، ومن ثم الى المغرب ، ومعهما نفر كبير من الحاشية ، فوصل الركب فاس فى محرم 760 هـ (ديسمبر 1358 م) حيث استقبلهما السلطان أبو سالم استقبالا حاراً ، واحتفل بقدومهم احتفالا عظيما ، وألقى ابن الخطيب فى هذه المناسبة ــ بين يدى المضيف ــ قصيدته الشهيرة (6) ، يستنصره ويستصرخه ؛ ليعين سلطانه على أمره .

ويشهد ابن خلدون المؤرخ ذلك الحفل ــ بصفته من كبار رجال البلاط المرينى ــ فيصفه لنا ويقول : « إن ابن الخطيب استولى على سامعيه ، فأبكاهم تأثــراً » .

هذا وقد طاب العيش لابن الخطيب بالمغرب فى رعاية السلطان« أبى سالم »، الذى أقطعه الأراضى، ورتب له الرواتب ، حيث استقر فى مدينة « سلا » (7) حوالى ثلاثة أعوام منفياً 760 ــ 763 هـ (1358 ــ 1361 م) ، اقتنى خلالها الضياع والأموال، ولكن لم ينس ــ فى الوقت نفسه ــ نزعته الثقافية والتاليفية، فجاس خلال مدن المغرب دارساً باحثاً ، ملتقياً بالعلماء فى تجواله ، وفى نهاية المطاف يرجع الى سلا ، حيث يرابط بضاحية « شالة » ، قرب أضرحة ملــوك بنــى مريــن

6) نفح الطيب للمقرى ج 3 ص 46 ــ 48 ، ازهار الرياض لنفس المؤلف ج 1 ص197 ــ 200 وهى ثمانون بيتا .

7) سنعرف ايضاً بهذه المدينة من بعد فى مناسبة وصفها .

ولقد كسب ابن الخطيب ثقة هذا السلطان الغرناطى ، حيث قربه من مجلسه ، وخلع عليه الجم من النعم ، كما أنه أصبح أثيراً لديه ، مودعاً اياه أمانة سره وكتابته ، وذلك لروعة هذه المكاتبات السلطانية التى دبجها له من جهة ، ولنجاح سفاراته مع ملوك النصارى والمغرب من جهة أخرى ، فقد بعثه عاهل غرناطة سفيراً الى أبى الحسن المرينى ملك المغرب عام 749 هـ (1348 م) .

ولما توفى السلطان أبو الحجاج يوسف قتيلا – فى يوم عيد الفطر 755 هـ (19 أكتوبر 1354 م) – خلفه فى الملك ولده السلطان محمد الخامس الغنى بالله ، واستمر ابن الخطيب فى معاونة الوزير أبى النعيم رضوان على خدمة السلطان الجديد ، كما تولى الوصاية على الأبناء القصر للسلطان المتوفى ، ثم قام بسفارة الى السلطان « أبى عنان فارس المرينى » عام 755 هـ = 1354 م ، ولقد نجح ابن الخطيب فى مهمته هذه نجاحاً عظيماً ، ذلك أن ملك المغرب استجاب للمطالب التى حملها ابن الخطيب لصالح ملك غرناطة ، وفى مقدمتها العون الحربى لمقاومة أطماع ملك قشتالة .

ولقد ظفر ابن الخطيب بمكانة ممتازة لدى الغنى بالله ، اذ منحه ثقته كأبيه من قبل ، وخلع عليه لقب (ذو الوزارتين) ، لجمعه بين وزارة القلم ووزارة السيف .

ولكن حدث أن اندلعت الثورة بغرناطة ، فى رمضان 760 هـ = 1359 م ، ونتج عنها فقدان السلطان الغنى بالله لملكه ، واستيلاء أخيه الأمير اسماعيل على العرش ، كما تمخضت هذه الثورة عن مقتل الحاجب أبى النعيم رضوان ، ثم فرار الغنى بالله الى وادى آش (5) ، وعليه فأصبح ابن الخطيب لا يملك من الأمر شيئا ، غير أنه حاول أن يستميل السلطان الجديد ، فقبله فى منصب الوزارة مؤقتا ، ثم تشكك بعد قليل فى نواياه ، وذلك بتحريض منافسيه وحساده ، فقبض عليه ، وصادر أملاكه ، وبذلك فقد ابن الخطيب جاهه ونفوذه ، بل ومتاعه بين عشية وضحاها .

---

5) راجع ما كتبناه عن هذه المدينة فى وصف ابن الخطيب للمدن الأندلسية من هذا الكتاب .

لم تطل هذه النكبة بابن الخطيب ، فقد بعث ملك المغرب السلطان أبو سالم سفيره (الشريف أبا القاسم التلمساني) الى ملك غرناطة الجديد ، يطلب اليه أن يسمح للملك المخلوع (الغني بالله) ووزيره ابن الخطيب بمغادرة الأندلس الى المغرب ضيفين عزيزين ، فرضخ سلطان غرناطة لهذا الطلب ، سياسة منه في الابقاء على أواصر الوداد مع بني مرين ، واحتفاظاً بهم سندا لمستقبل الدولة الاسلامية بالأندلس . ولهذا أطلق سراح ابن الخطيب ، ولحق بسلطانه ، حيث لجأ إلى وادى آش ، ومن ثم الى المغرب ، ومعهما نفر كبير من الحاشية ، فوصل الركب فاس في محرم 760 هـ (ديسمبر 1358 م) حيث استقبلهما السلطان أبو سالم استقبالا حاراً ، واحتفل بقدومهم احتفالا عظيما ، والقى ابن الخطيب فى هذه المناسبة – بين يدى المضيف – قصيدته الشهيرة (6) ، يستنصره ويستصرخه ؛ ليعين سلطانه على أمره .

ويشهد ابن خلدون المؤرخ ذلك الحفل – بصفته من كبار رجال البلاط المريني – فيصفه لنا ويقول : « إن ابن الخطيب استولى على سامعيه ، فأبكاهم تأثـراً » .

هذا وقد طاب العيش لابن الخطيب بالمغرب فى رعاية السلطان« أبى سالم »، الذى أقطعه الأراضى، ورتب له الرواتب ، حيث استقر فى مدينة « سلا » (7) حوالى ثلاثة أعوام منفياً 760 – 763 هـ (1358 – 1361 م) ، اقتنى خلالها الضياع والأموال، ولكن لم ينس – فى الوقت نفسه – نزعته الثقافية والتأليفية، فجاس خلال مدن المغرب دارساً باحثاً ، ملتقياً بالعلماء فى تجواله ، وفى نهاية المطاف يرجع الى سلا ، حيث يرابط بضاحية « شالة » ، قرب أضرحة ملـوك بنـى مريـن

6) نفح الطيب للمقرى ج 3 ص 46 – 48 ، ازهار الرياض لنفس المؤلف ج 1 ص197 – 200 وهى ثمانون بيتا .

7) سنعرف ايضاً بهذه المدينة من بعد فى مناسبة وصفها

ولقد أصيب ابن الخطيب ــ ابان هذه الفترة ــ فى زوجته أم أولاده ، وبالرغم من كل ما أصابه من نكبات متوالية فانه لم يقعد عن التأليف ، ولم يخلد الى الراحة والسكينة ، ويكفى دليلا على هذا تلك المؤلفات التى حررها وقتئذ ، ومن أهمها :

I) معيار الاختيار ، فى ذكر المعاهد والديار (هذا الكتاب) .

2) نفاضة الجراب ، وعلالة الاغتراب .

3) اللمحة البدرية فى تاريخ الدولة النصرية .

4) الحلل المرقوفة ، فى اللمع المنظومة (8) .

5) رقم الحلل ، فى نظم الدول .

6) كناسة الدكان ، بعد انتقال السكان .

7) رسائل فى فنون مختلفة ، معظمها نظمه شعرا .

وفى هذه الأثناء تم انقلاب فى فاس ، ترتب عليه مصرع السلطان أبى سالم ، فى ذى القعدة 762 هـ (I360 م) ، وتقلد السلطان صاحب الانقلاب الوزير عمر بن عبد الله ، الذى أعان ابن الأحمر المخلوع على أمره ، ووقف الى جانبه فى استرجاع عرشه ، حتى سنحت الفرصة ، وواتت الظروف ، باندلاع ثورة جديدة فى غرناطة ، صرع فيها السلطان اسماعيل بن الأحمر على يد الرئيس أبى سعيد ، الذى فر الى (قشتالة) عقب عودة الغنى بالله الى الأندلس ، واستيلائه على ولاية مالقة ، ثم دخوله غرناطة ، وتربعه على العرش من جديد عام 763 هـ = I36I م .

لقد استدعى سلطان غرناطة الجديد ، محمد الخامس الغنى بالله ، وزيره المنفى ابن الخطيب ، ليقدم الى دار ملكه ، برسالة مؤرخة : I4 جمادى الآخرة 763 هـ (I5 أبريل I36I م) وليتقلد منصبه السابق . فاستجاب ابن

8) هذا الكتاب يتحدث فيه ابن الخطيب عن تاريخ الدولة الاسلامية ، وقد أهداه الى السلطان أبى سالم المرينى ملك المغرب ، فكافأه عليه بمضاعفة رواتبه ، كما كتب ــ فى شأن المؤلف ــ الى سلطان غرناطة ، يطلب منه الافراج عن ممتلكات ابن الخطيب المصادرة .

الخطيب ، وجاز البحر صحبة أسرة السلطان وأسرته ، ثم وصل العاصمة ، وهناك وجد من يزاحمه منصبه ، وينافسه السلطة ، وهو شيخ الغزاة (عثمان بن أبى يحيى) ، صاحب اليد على السلطان فى استرجاع العرش ، فنشب خلاف بين الرجلين ، وحقد كلاهما على الآخر ، ولكن ابن الخطيب كان أشد مراساً بأساليب الكيد والدس ، فتغلب على خصمه ؛ اذ زين للسلطان خطورة نفوذ عثمان هذا ، وبدأ يخيفه من غدره وغدر أشياعه ، فاستجاب ابن الأحمر لنصح ابن الخطيب ، وقضى على عثمان وآله فى شهر رمضان 764 هـ = 1363 م ، وبذلك استرد ابن الخطيب كامل سلطته ، دون مناوىء أو منافس ، ولكن الى حين ، فقد شعر مرة أخرى بما يحاك حوله من دسائس ومكائد ، ورأى سلطانه يتأثر بسعاية الخصوم ، وقد تزعم هذه الحملة الجديدة ضد ابن الخطيب رجلان وثيقا الصلة بالسلطان بحكم وضعيتهما فى الخدمة السلطانية ، ولمكانتهما السياسية فى الدولة ، وهما :

1) الشاعر محمد بن يوسف المعروف بـ « ابن زمرك » تلميذ ابن الخطيب ، ومعاونه فى الوزارة .

2) قاضى الجماعة أبو الحسن على بن عبد الله النباهى ، ولى نعمة ابن الخطيب .

وحينئذ شعر ابن الخطيب بخطورة موقفه عند السلطان ، بين هذين الرجلين الداهيتين ، فدبر أمره على مغادرة الأندلس نهائياً ، دون أن يشعر السلطان مطلقاً بذلك ، وفعلا طلب منه أن يأذن له فى تفقد بعض الثغور والموانىء الأندلسية ، فأجابه السلطان ، وكان وزيرنا ــ من جانبه ــ قد أعد العدة للابحار الى المغرب ، حيث يحل ضيفاً لاجئاً على السلطان أبى عنان فارس بن أبى الحسن المرينى ، وقد تم له ذلك بوصوله الى جبل طارق ، الذى كان يومئذ ضمن أملاك المرينيين ، ونجحت الخطة ، اذ استقبله قائد الميناء بحفاوة ، وسهل له مهمته ، بأمر من سلطان المغرب ، وأجازه الى سبتة هو ومن معه من ولده ، وقبل أن يودع هذه البقاع بعث برسالة مؤثرة الى السلطان الغنى بالله

يعلل فيها مسلكه هذا ، ويبرر تصرفه الاضطرارى ، وأخيراً يطلب غفرانه راجياً عونه لأسرته التى خلفها وراءه فى غرناطة .

وصل ابن الخطيب الى سبتة ومنها التحق بتلمسان ، مقر السلطان عبد العزيز الذى احتفي به وأكرمه ، ثم بعث بسفرائه الى غرناطة ، يلتمس من سلطانها ان يجيز أسرة ابن الخطيب ، فأجابه ابن الأحمر الى طلبه ، وكان ذلك عام 773 هـ = 1371 م .

وكان من المتوقع أن يهنأ ابن الخطيب بهذا المقام بالمغرب ، فالسلطان قد أحله مكانته اللائقة به ، وأبدله مما فقد الشيء الكثير ، ولكن — للأسف — اتخذ منافسوه بغرناطة من هربه — على هذه الصورة — مادة دسمة للكيد ، وأكدوا للسلطان محمد الخامس ابن الأحمر ادانته ، وعدم وفائه لولى نعمته ، وزاد الاتهام تأكيداً أن ابن الخطيب كان حريصا على أن يحمل معه أمواله وذخائره الى المغرب ، وفى هذا يخاطب القاضى النباهى غريمه — فى الرسالة المعروفة التى بعث بها اليه : « فهمزتم ولمزتم ، وجمعتم من المال ما جمعتم ، . . . ، ثم هربتم بأثقالكم » (9) .

كان القاضى النباهى فيما سبق من أنصار الوزير ابن الخطيب ، بل إن تعيينه قاضياً للجماعة واستصدار ظهير هذا المنصب قد تم على يدى ابن الخطيب نفسه ، كما نجد فى كتاب الاحاطة ترجمة للنباهى تنبىء عن تقدير ابن الخطيب لهذا الرجل ؛ اذ ينعته بأنه « قريع بيت مجادة وجلالة ، وبقية تعين وأصالة ، عف النشأة ، طاهر الثوب ، مؤثر للوقار والحشمة ، بعيد الغور ، مرهف الجوانب ، ناظم ، ناثر ، نثره يشف عن نظمه ، ذاكر للكثير ، بعيد المدى فى باب النزاهة ، ماضي غير هيوب . . . الخ » ، ولكن ذلك « النباهى » تنكر تماماً لابن الخطيب ، ولم يحفظ له هذا الجميل ؛ فقد آزر الوزير « ابن زمرك » ضده ، وسعى سعياً حثيثاً فى سبيل القضاء عليه ، وتتجلى هذه الروح الشريرة ، وما يمليه الحقد الشخصى ، والضغائن الدفينة ، فى تلك

9) المقرى فى « نفح الطيب » جـ 7 ص 56 .

الرسالة التى بعث بها القاضى النباهى الى ابن الخطيب بالمغرب ، وفيها يعيب عليه الانصراف الى اقتناء الضياع والديار ، كما أنـه نسب اليـه ـ فى بعض مؤلفاته ـ بعض محدثات فى الدين ، مما يمس الشريعة الاسلامية ، كما تناول فى بعض هذه المؤلفات الأموات من الناس ، وذلك بالطعن أو العيب فيهم ، الأمر الذى يستنكره الدين . . . . ، الى آخر ما جاء فى تلك الرسالة من هذه المثالب ، وحتى مغادرة ابن الخطيب للأندلس مؤخراً ـ على تلك الصورة ـ رأى فيها النباهى غدراً بالسلطان ولى نعمته ، كما كذبه فى ادعائه الانقطاع للعبادة فى المغرب ، وأنه لو أرادها حقيقة لقصد الديار المقدسة ، أو أبقى على نفسه بغرناطة بجوار الكفاح والجهاد ، لنصرة المملكة الاسلامية التى يتهددها خطر الأسبان كل حين .

وفى الأخير ينهى النباهى رسالته بالنيل من أسرة ابن الخطيب ، بأنها حديثة النعمة ، وأن ثروتها هذه لم تأت الا عن طريق المنصب والسلطة . .

وقد كان لهذه الرسالة أثر كبير فيما بعد ؛ حيث كانت صك الاتهام ، وأدين ابن الخطيب على أساس ما ورد فيها ، وذلك عندما حلت نكبته ، ودنت ساعة نحسه (IO) .

هذا ، ويرجع تاريخ الرسالة هذه الى أواخر جمادى الأولى 773 هـ = I37I م ، وقد تسلمها ابن الخطيب بتلمسان ، وأجاب على ما جاء بها مفصلا ، فى كتابه « الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة » ، وشدد النكير على القاضى النباهى ، عندما وصفه بأنه « الجعسوس » أى : القزم الدميم ، وزاد ابن الخطيب فوضع رسالة خاصة للنيل من خصمه اللـدود ، وسماها « خلع الرسن ، فى وصف القاضى أبى الحسن » .

ظل القاضى النباهى وابن زمرك على عزمهما بسحق غريمهما ابن الخطيب ، فبعد احراق كتبه العقائدية ، عهد النباهى الى قضاة غرناطة باستصدار حكم الشرع فى جريمة الالحاد ، وهو الاعدام ، وحصل من السلطان على مصادقة بهذا

IO) المقرى فى « ازهار الرياض » جـ I ص 2I2 ـ 224، حيث اورد المؤلف الرسالة كاملة.

الحكم ، وبعث القاضي أبو الحسن بنوابه الى السلطان عبد العزيز وبأيديهم هذا الحكم ، فقابل السلطان رسل غرناطة بالاستنكار ، وخاطبهم قائلا : « هلا أنفذتم فيه حكم الشرع وهو عندكم ، وأنتم عالمون بما كان عليه ! ! ! » وبالغ فى اكرام ابن الخطيب ، وأضفى عليه مزيداً من عنايته .

وتجدر الاشارة هنا الى أن ابن الخطيب قد لاحظ وقتئذ قوة المغرب في عهد صديقه السلطان عبد العزيز ، ومبلغ العداء بين فاس وغرناطة وقد بلغ أوجه ، فحرض السلطان على ضم غرناطة لمملكته ، وقد رمى من وراء ذلك الى سحق أعدائه هناك ، وتأمين مقامه بالمغرب ، وما يتبع ذلك من حماية مصالحه .

ويظهر أن هذه السياسة قد لاقت قبولا عند السلطان عبد العزيز ، فصمم على تنفيذها ، وفى ذلك يقول ابن خلدون : « ثم تأكدت العداوة بينه (ابن الخطيب) وبين ابن الأحمر ، فرغب السلطان عبد العزيز فى ملك الأندلس وحمله عليه ، وتواعدوا لذلك عند رجوعه من تلمسان الى المغرب (II) » ، وبلغت ابن الأحمر رغبة ملك المغرب هذه ، فتخوف لذلك كثيراً ، وأسرع الى ايفاد رسله بالهدايا والتحف الثمينة الى بلاط فاس ، آملا فى نيل رضا السلطان عبد العزيز ، واتقاء شره . ثم تفاجىء الظروف الموقف ، فيموت السلطان عبد العزيز بعدئذ بقليل ، ويجلس على عرش المغرب ابنه « أبو زيان محمد السعيد » طفلا فى الرابعة من عمره ، فى ربيع الآخر 774 = 1372 م ، وقبض على زمام السلطة الفعلية وزيره « أبو بكر بن غازى » ، فتغيرت الأوضاع السياسية بالمغرب تماما ، واضطر ابن الخطيب حينئذ أن يتزلف الى الملك الطفل ووزيره ، فألف كتابه المعروف باسم « أعمال الأعلام ، فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام » ، وفيه يبرر هذا الوضع الجديد شرعا ، وعرفا وتاريخا ، وأورد لذلك الأشباه والنظائر ، رداً على المناهضين بالمغرب ، وخاصة بنى الأحمر وعملائهم .

II) ابن خلدون فى « العبر » ج 7 ص 338 ـ 341 .

وفى هذه الأثناء قام السلطان ابن الأحمر بمحاولة أخرى للايقاع بابن الخطيب ، وذلك بأن أوعز الى الوزير « ابن غازى » أن يبعث اليه بابن الخطيب ، فامتنع ابن غازى ، وتوترت العلاقات مرة أخرى ، بين غرناطة وفاس ، الأمر الذى جعل ابن الأحمر يوغر صدور هؤلاء الأمراء المرينيين ضد النظام القائم فى فاس ، وبذل فى سبيل القضاء على هذا النظام مساعدات ضخمة ، كما أقنع من اتصل بهم من حكام الأقاليم — وخاصة حاكم سبتة أبا محمد بن عثمان — بأن من الأفضل للمغرب أن يكون الملك رجلا راشداً ، لا طفلا صغيرا ، لا يدرك شيئاً ، واتفق معه على تنصيب الأمير المرينى أبى العباس أحمد بن أبى سالم ملكاً على المغرب ، وأنه — أى محمد بن عثمان — سيكون الوزير مستقبلا ، وأعطاه المزيد من المساعدات الهائلة لتنفيذ هذا الاتفاق ، على أن يحقق هذا الوزير لابن الأحمر ثلاثة مطالب ، بعد نجاح الخطة ، وهى :

1) تسليم ابن الخطيب .

2) تسليم الأمراء المناهضين لابن الأحمر .

3) تسليم جبل طارق .

ووقعت بعض الحوادث بالمغرب ، وتمخضت عنها ثورة قاضية ، أدت الى حدوث الانقلاب المنشود لابن الأحمر ، ونودى حينئذ بالأمير أحمد بن السلطان أبى سالم والياً على المغرب (776 هـ = 1374 م) .

وهنا أسرع السلطان الجديد بالقبض على ابن الخطيب ، وسجنه ، وبذلك تهيأت الفرصة لوضع نهاية الوزير المنكود ؛ فقد كان الوزير الجديد ببلاط فاس سليمان بن داود من ألد خصوم ابن الخطيب ، ومن جهة أخرى فقد أرسل سلطان غرناطة سفيره ووزيره عبد الله بن زمرك الى فاس ليشهد آخر فصل فى هذه الرواية ، وليدق آخر مسمار فى نعش ابن الخطيب ، وبوصول ابن زمرك عقد السلطان أحمد مجلساً من مستشاريه وكبار رجال الدولة ، ونوقش ابن الخطيب أمام هذا المجلس ، حول كافة الادعاءات المقامة ضده ، وبالأخص دعوى الالحاد ، تلك الدعوى التى صاغها القاضى النباهى من قبل ، وكان مجلساً

صورياً بطبيعة الحال ؛ فان نتيجة المحاكمة كانت مقررة ، ومتفقاً عليها من قبل، فى كل من غرناطة وفاس .

لقد أوذى ابن الخطيب أمـام شهود هذه المؤامرة ، وأفتـى الفقهـاء المتعصبون باعدامه شرعاً ، فأعيد الى سجنه حيث دبر الوزير سليمان بن داود أمر قتله فى السجن ، وفعلا بعث اليه ببعض الأشرار الذين قتلوه خنقاً أواخر عام 776 هـ = 1375 م ، وفى الصباح سحبت جثته الى الفضاء ، حيث تم حرقها ، ودفن بضاحية فاس (12) .

ويروى المقرى أنه تمكن مؤخراً من معرفة قبر ابن الخطيب ، وذلك خلال اقامته بفاس ، أوائل القرن الحادى عشر الهجرى (القرن السابع عشر الميلادى) ، فزاره مراراً حيث يرقد ، وفى هذا يقول : « وقد زرته مراراً ــ رحمه الله تعالى ــ بفاس المحروسة ، فوق باب المدينة الذى يقال له : باب الشريعة ، وهو يسمى الآن « باب المحروق » ، وشاهدت موضع دفنه غير مستو مع الأرض، بل ينزل اليه بانحدار كثير (13) »

رحم الله ابن الخطيب كفاء ما زود التاريخ من ذخائر ، وأهدى العلوم والمعارف من نفائس .

12) ابن خلدون « العبر » ، جـ 7 ص 341 ــ 342

13) المقرى « نفح الطيب » ، جـ 7 ص 83 .

ابن الخطيب
في نظر بعض المؤرخين والمستشرقين

قضى الوزير الفذ ، والمفكر العظيم ، والمؤرخ الكبير ، والموسوعة العلمية ، على هذا النحو ، ضحية الأحقاد والأضغان ، وبالرغم مما أثير حول الرجل إبان محنته من موجة عارمة بالسخط ، فان هذه الموجة لم يطل أمدها ، اذ كانت مغرضة عارية من ثوب الحقيقة ، يدل على هذا ما رأيناه من المؤرخين القدامى ، الذين انبرت أقلامهم لانصافه ، واحلاله المكانة اللائقة به بين رجال التاريخ . ونخص من المؤرخين أولئك الذين قربوا من عهده ؛ فابن خلدون صديقه القديم يسجل أولا أنه « هو الهالك لهذا العهد ، شهيداً بسعاية أعدائه (14) ، » ثم يورد ــ فى مقام آخر ــ أنه « شاعر الأندلس والمغرب فى عصره » ، كما يشهد له فى ميدان الشعر والنثر بقوله : « وامتلأ حوض السلطان من نظمه ونثره ، مع انتقاء الجيد منه ، وبلغ فى الشعر والترسل ، حيث لا يجارى فيهما ، وامتدح السلطان أبا الحجاج من ملوك بنى الأحمر ، وملأ الدولة بمدايحه ، وانتشرت فى الآفاق قدماه » ، ويتحدث ابن خلدون كذلك عن رسائل ابن الخطيب السلطانية بقوله : « وصدرت عنه غرائب من الترسل فى مكاتبة جيرانهم (ملوك بنى الأحمر) من ملوك العدوة » .

وحقا لقد خلف ابن الخطيب من هذه الرسائل روائع ، تعد نموذجاً رفيعاً ، لما بلغه قلم الرجل من شأو فى فن النثر الوزارى السياسى خاصة ،

14) المقرى « ازهار الرياض » جـ 1 ص 191 .

سواء – من هذه الرسائل – ما بعث به على لسان سلطانه الى ملوك المغرب أو ملوك النصارى ، أو سلاطين مصر ؛ فبين أيدينا الكثير الجم ، ويعتبر كتابا « ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب » مجلداً ضخماً لألوان نثر ابن الخطيب المختلفة ما بين أغراض سلطانية ، الى رسائل اخوانية ، الى أوصاف حربية لمعارك دارت رحاها على أيامه .

أما المقرى فقد جمع فى مؤلفه « نفح الطيب » معظم آثار إبن الخطيب وما كان له من أخبار فى الفترة التى عاشها بالأندلس والمغرب ، ويكاد يكون معظم هذا السفر الضخم وقفاً على ابن الخطيب ، حتى أنه قرن اسم الكتاب به

وقد أشاد المقرى فى أكثر من موضع – من كتابه هذا – بوزيرنا ، فيقول عنه مثلا : « اذ هو فارس النظم والنثر فى ذلك العصر ، والمنفرد بالسبق فى تلك الميادين بأداة الحصر (15) » .

وفى مجال العلوم والآداب بألوانها هو « امام هذه الفنون ، المحقق لذوى الآمال والظنون ، المستخرج من بحار البلاغة درها المكنون ، وله اليد الطولى فى العلوم على اختلاف أجناسها ، والألفاظ الرائعة التى تزيح وحشة الأنفس بايناسها (16) » .

وبالجملة ، فالمقرى يرى أن ابن الخطيب « قد قصرت ألسن البلغاء عن عُلاه ، وزانت صدور الدواوين حُلاه ، وجمع خلالا حسانا ، وكان للدين لسانا (17) » .

أما الأمير « أبو الوليد اسماعيل ابن الأحمر » ، معاصر ابن الخطيب ، فيسجل فى كتابه « نثير فرائد الجمان ، فيمن ضمنى واياهم الزمان » مواهب

---

15) المصدر السابق ج 1 ص 77 .

16) المقرى « نفح الطيب » ج 1 ص 110 .

17) المقرى « نفح الطيب » ج 1 ص 111 .

هذا الوزير وعبقرياته ، فيقول : « هو شاعر الدنيا ، وعلم الفرد والثنيا ، وكاتب العَرْض الى يوم العَرْض ، لا يُدافَع مدحه فى الكتب ، ولا يُجنح فيه الى العتب ، آخر من تقدم فى الماضى ، وسيف مقولة ليس بالكهام ؛ اذ هو الماضى ، والا فانظر كلام الكُتاب الأُوَل من العُصْبة ، كيف كان فيهم بالافادة صاحب القصبة ، للبراعة ، باليراعة ، وبه أسكت صائلهم ، وما حمدت بكرهم وأصائلهم ، المشربة بالحلاوة ، المكنة من مفاصل الطلاوة ، وهو نفيس العدوتين ، ورئيس الدولتين ، بالاطلاع على العلوم العقلية ، والامتاع بالفهوم العقلية (18) » .

كذلك يبدى النقاد الأجانب اعجابهم وتقديرهم لابن الخطيب ، وينوّهون فى كثير من المناسبات بمنزلة الرجل العلمية والأدبية ، وما زالت آثاره محل دراستهم المستفيضة ، معينا لا يغيض ، ومنهلا بالمعارف يفيض .

وفى طليعة هؤلاء النقاد الأجانب المستشرق الأسبانى (سيمونيت Simonet) حيث يقول : « ان ابن الخطيب قد خلّف لنا آثاراً كثيرة ، فى النثر والشعر ، والتاريخ ، والجغرافيا ، والرحلات ، والبلاغة ، والشريعة ، والعلوم ، والأخلاق ، والدين ، والنبات ، والطب والبيطرة ، والموسيقى ، والفن الحربى ، والسياسة ، وكلها غنية فى الابتكار والتعمق والرشاقة (19) » .

وبهذه المناسبة نذكر أن المستشرق « سيمونيت » تناول بالتحقيق والترجمة المدن الأندلسية التى وصفها ابن الخطيب فى كتابه « معيار الاختيار ، فى ذكر المعاهد والديار » موضوع هذا الكتاب — كما أسلفنا فى المقدمة — على نحو ما سنفصل القول عنه فى الباب الثالث ، عند حديثنا عن قيمة مؤلفه هذا من الناحيتين التاريخية والأدبية .

---

18) المقرى « أزهار الرياض ، فى أخبار القاضى عياض » جـ 1 ص 191 .

19) F. J. Simonet. Discripcion Del Rieno de Granada, Sacada Del Los Autores Arabigos.

هذا ، ويكفينا فى هـذا العرض الموجز للتعريف بابن الخطيب أن نقتصر على آراء هؤء المؤرخين وبعض المستشرقين كشهادة صادقة للزجل الذى دخل دخل التاريخ من أوسع أبوابه ، وإن هذه الشهادة من أمثال هؤلاء لفى غنى منا عن التعليق ، فقد استقاها أصحابها من واقع مؤلفاته العديدة ، أبلغ حجة ، وأوضح بيان ، وأقوى برهان ، على مدى ما بلغه ابن الخطيب من شهرة سمت الى الأوج ، لما تمتع به من عقلية فذة ذات آراء نافذة .



الفصل الثاني

تراثه الفكري

آثار ابن الخطيب

مؤلفات الوزير العبقرى الغرناطي ابن الخطيب متعددة الفنون ، ما بين شعر ونثر ، وتاريخ ، وطب ، وموسيقى ، وسياسة ، وغيرها ، وهي ــ على وجه التقريب ــ تربو على الخمسين مؤلفاً ، ففى الترجمة التى عقدها ابن الخطيب لنفسه فى آخر كتابه « **الاحاطة فى أخبار غرناطة** » أورد أسماء مؤلفانه ، بيد أن قدراً هاماً من هذه المؤلفات قد أعدم قبله ، على يد الوزير ابن زمرك والقاضى النباهي بغرناطة ، عام 773 هـ (1371 م) ، ومعظم هذه الكتب تتعلق بعلوم الأخلاق والعقائد ، أما مؤلفاته التى بين أيدينا الآن فهي القسم الأدبى والتاريخى فى الغالب ، وقد حاول كثير من المؤرخين والمستشرقين حصر هذه المؤلفات فى فهارسهم ، ولكن حياة ابن الخطيب السياسية ، والتقلبات التى تعرض لها جعلت هؤلاء المستشرقين أو المؤرخين لا يفرقون بين ما ألّفه الرجل فى **المغرب ، وبين ما ألفه فى الأندلس . ويرى « ليفي بروفنسال » أن مؤلفات لسان الدين قد بلغت حوالي ستين كتابا، ولكن لم يبق منها الا الثلث تقريبا.**

هذا ، وإن كتب ابن الخطيب ــ سواء منها ما هو مخطوط لم يحقق بعد ، أم ما حقق ونشر ــ لتحتل مركزاً ممتازاً بين المصادر التاريخية المعتمدة ، لاسيما منها ما يتناول هذا الجزء من الغرب الاسلامى فى المغرب والأندلس ، فقد أنارت السنبيل أمام المؤرخين والعلماء ، ويسرت لهم بحوثهم عن هــذه البقاع ، لقلة المصادر الأخرى المعاصرة ، ولأن ابن الخطيب قد عاش هــذه الحقبة من القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) .

ونزيد فنقول : إن هذه المؤلفات العديدة ـ بصفة عامة ـ ما تـزال تحظى بالتقديـر والبحث منذ عصر وزيرنا حتى الآن ، لا عند العرب فقط ، بل وعند غيرهم أيضاً ، فذخائر ابن الخطيب تراث مشاع ، يدرسه المستشرقون على اختلاف أجناسهم ، ويجلون كنوزه ، ويبرزونها الى الفكر الانسانى فى العالم، ليشهد طلاب الأدب والمعرفة ما تمخضت عنه عقلية الرجل الواسعة ، مما تحتويه المكتبات العربية والأجنبية منها .

ويجدر بنا أن نعرض هنا موجزاً لأهم آثار ابن الخطيب مما ينسب إليه تأليفه ، سواء أكان موجوداً أم مفقوداً ، وسواء أكان مخطوطاً أم تم تحقيقه ونشره ، والذى لا أعتقد أنه بيان شامل لكل مؤلفاته ، فقد يتسنى لباحث آخر أن يعثر على مؤلفات أخرى له زيادة عما أعرض منها مما فاتنى تحصيله (١) :

١ ـ « الاحاطة فى اخبار غرناطة » .

(تاريخ وتراجم)

من أشهر مؤلفات ابن الخطيب ، توجد له نسخ فى كل من القاهرة (الأزهر ودار الكتب) وتونس ، والرباط ، ومدريد ، والاسكوريال ، وعنوان الكتاب ينبىء عن موضوعه ، فقد تناول فيه أخبار هذه المدينة الشهيرة، تاريخياً وجغرافياً وسياسياً واجتماعياً وأدبياً ، منذ الفتح العربى لاسبانيا حتى عصر المؤلف (دولة بنى الأحمر) ، منتهياً منه إلى عهد السلطان الغني بالله محمد

(١) هذا القدر من مؤلفات ابن الخطيب اعتمدنا فى ايراده على المصادر التالية :

أ ـ نفح الطيب ، للمقرى ، جـ 4 ص 653 ـ 657 .

ب ـ ازهار الرياض ، للمقرى ، جـ ١ ص ١٨٩ ـ ١٩٠ .

جـ ـ فهرس بروكلمان C. BROCKELMAN : Geschichte der Arabischen Li teratur : (1948) 13. 11. p. 339.

د ـ فهرس العزيزى CASIRI : Bibliotheca Arabi co-Hispana Escurialensis

هـ ـ فهرس ديرنبور H. DIRENBOURG : Les Manuscrite Arabes de l'Escurial

F. PONS BIOGYES : Ensayobio - Bibliogr afico sobre los Historiodores y, V. I. & V. III. Geografas Arabigo - Espanales (Madrid 1898) P. 334 - 347 .

و ـ ابن الخطيب من خلال كتبه ـ للأستاذ التطوانى (جزءان) المغرب 1948 .

الخامس ثامن ملوك بنى نصر ، حيث وزر له مرتين ، ويتألف هذا الكتاب من خمسة عشر سفراً ، وهي في مجموعها قسمان ، كما جاء بنهاية المقدمة :

1) « القسم الأول فى حلي المعاهد والأماكن والمنازل والمساكن » ، وهو الخاص بالعاصمة « غرناطة » ، ويشغل هذا القسم عشرين لوحة (أربعين صفحــة) .

2) « القسم الثانى فى حلي الزائر والقاطن ، والمتحرك والساكن » ، وهو لب الكتاب ، ففيه تراجم الملوك والوزراء والقواد والعلماء والأدباء ، ومن إلى هؤلاء ، ملتزماً فى هذا الترتيب الأبجدى لا التاريخى . ويرجع تأليف ابن الخطيب للاحاطة إلى ما قبيل عام 760 هـ ، ولكنه لم يفرغ منه إلا في أواسط عام 765 هـ ، ففى نهاية ترجمته لنفسه يحدثنا عن فراغه من « الاحاطة » بقوله : « والحال إلى هذا العهد ، وهو منتصف عام خمسة وستين وسبعمائة ، على ما ذكرته » . هذا، وتوجد من الاحاطة نسخة مطبوعة فى جزأين (القاهرة 1319 هـ)، ثم حقق الأستاذ عبد الله عنان الجزء الأول منها ، بتحقيق جديد ، ضمن مجموعة (ذخائر العرب 17) نشر دار المعارف بالقاهرة عام 1955 م .

2 ـ « **الاماطة عن وجه الاحاطة ، فيما أمكن من تاريخ غرناطة** » .
(تاريــخ)

ورد ذكر هذا المؤلف فى كتاب ابن الخطيب (اللمحة البدرية) ، فربما كان مختصراً لكتابة (الاحاطة) ، على أنه لم يرد اسمه ضمن كتبه التى ذكرها فى هذه الاحاطة .

3 ـ « **مركز الاحاطة ، فى أدباء غرناطة** » .

مؤلف أورده المستشرقون فى فهارسهم ، ويعتقد أنه تكملة لتراجم الاحــاطــة .

4 ـ « **ريحانة الكُتّاب ، ونُجْعَة المُنْتاب** » .
(ألوان أدبية وسياسية)

عبارة عن مقتبسات من مؤلفاته الأخرى ، مثل بستان الدول ، ورقم

الحلل ، وغيرهما ، وتوجد لهذا المؤلف الضخم أكثر من مخطوطة ، فى كل من الرباط والقاهرة ومدريد والفاتيكان ، بيد أن نسخاً كاملة منه موجودة فى الخزانة العامة بالرباط ، بالاضافة الى أخرى بمكتبة مدريد الوطنية .

5 ــ « اعمال الأعلام ، فى من بويع قبل الاحتلام ، من ملوك الاسلام ، وما يجر ذلك من الكلام » .

(تاريــخ)

وهو مؤلف فى التاريخ الاسلامى ، يقع فى جزأين ، أولهما خاص بالشرق الاسلامى ، وثانيهما خاص بتاريخ الأندلس ، ولاسيما ملوك الطوائف ، وبنى نصر ، وملوك النصارى ، وذلك على سبيل الايجاز . . . ، وقــد أشار المؤلف فى مقدمته الى أن هذا الكتاب هو آخر مؤلَّف له ، فقد وضعه فى الفترة الأخيرة من حياته وقبيل مقتله بالمغرب ، استجابة للظروف التى كان يجتازها حينئذ ، ثم انقلب الوضع بعدها ، وكانت نهايته على نحو ما سبق تبيانه .

توجد للكتاب نسخة فى مدريد ، نقلا عن نسخة الجزائر ، وقد حقق الجزء الأول منه والخاص بتاريخ الأندلس ــ الأستاذ ليفى بروفنسال سنة 1934 م وحقق الجزء الثانى منه الدكتور العبادى والأستاذ محمد ابراهيم الكتانى ــ وهو الخاص بتاريخ المغرب . العصر الوسيط ــ (دار الكتاب بالمغرب عام 1967 م) .

6 ــ « الكتيبة الكامنة ، فى من لقيناه بالأندلس من شعراء المئة الثامنة » .

(تراجــم)

هذا الكتاب عبارة عن تراجم لطائفة من الأدباء والعلماء والكتــاب المعاصرين للمؤلف ، متضمناً نماذج من آثارهم شعراً ونثراً ، ويقع المؤلف فى ست وثمانين لوحة بمكتبة مدريد الوطنية ، وهى نسخة من مخطوطة الجزائر ، وقد حقق هذا الكتاب الدكتور إحسان عباس سنة 1963 م ، (دار الثقافــة ببيروت ــ المكتبة الأندلسية 8) ، وأثبت لنا أن ابن الخطيب كان يحرر الكتيبة فى جمادى الآخرة 774 هـ ، معتمداً فى ذلك على قول المؤلف نفسه فى (الورقة 85 ب) : « . . وكل من ذكر الى هذا الحد من المشايخ والأتراب ، فقد تسابقوا تسابق الغراب الى التراب . . . ، ومن يجرى ذكره بعد هذا فهم بقيد الحياة لتمام جمادى الآخرة عام أربعة وسبعين وسبعمــئة » ، كذلك استنتج المحقق

من دراسته الدقيقة لمقدمة هذا الكتاب أن ابن الخطيب ألفه فى سن عالية بعد أن نفض عن كاهله غبار السياسة ، مستدلا بقول ابن الخطيب فى المقدمة « . . . واستوعبت من صحبة المغرب حصتى ، وختمت بالدعاء قصتى ، ونزلت عن منصتى ، وابتلعت غصتى (21) » .

7 ـ « **اللمحة البدرية ، فى الدولة النصرية** » .

(تـاريخ)

مؤلف تاريخى موجز ، يدور حول أخبار ملوك بنى الأحمر ، منذ قيام دولتهم حتى عام 765 هـ . . . ، والكتاب مطبوع فى القاهرة عام 1947 م .

8 ـ « **رقم الحلل ، فى نظم الدول** » .

(شعـر)

نظم شعرى فى ألف بيت ، يتناول فيه المؤلف تاريخ الدولة الاسلامية بالمشرق والأندلس ، مذيلا كل قصيدة بشرح لها ، ويقع المؤلف فى مجلد واحد ، طبع بتونس عام 1316 هـ .

وتجدر الاشارة الى أن هذا الكتاب هو نفسه « الحلل المرقومة » ، تبعاً لما جاء فى نسخة مكتبة مدريد الوطنية ، والتى نسخت عن مخطوطة الاسكوريال (رقم 1776) .

9 ـ « **مفاخرة بين مالقة وسلا** »

(اجتماعيات)

10 ـ « **خطرة الطيف ، فى رحلة الشتاء والصيف** » .

(تاريخ لرحلة ملكية)

---

21) راجع : (الكتيبة الكامنة) لابن الخطيب ، تحقيق الدكتور احسان عباس ص 13 ـ 15 وهذا يخالف ما ارتآه الأستاذ محمد عبد الله عنان فى مقدمة « الاحاطة » من أن « الكتيبة » قد ألفها ابن الخطيب فى باكورة حياته ، ونحن نميل الى الأول .

11 ـ «نفاضة الجراب ، فى علالة الاغتراب»

(تاريخ مغربى)

يقع هذا الكتاب فى ثلاثة أجزاء .. أولها ما زال مفقوداً ، وقد نشر الدكتور العبادى الجزء الثانى منه بمعرفة دار الكاتب العربى بالقاهرة 1968 م . أما الجزء الثالث فقد عثر عليه الأستاذ عبد الوهاب ابن منصور مؤخرا .

12 ـ « معيار الاختيار ، فى ذكر المعاهد والديار » .

(الذى هو بين أيدينا الآن) .

13 ـ « مقنعة السائل ، عن المرض الهائل » .

(طـب)

عبارة عن رسالة وصف فيها ابن الخطيب الوباء الكبير ، الذى اجتاح الأندلس وحوض البحر الأبيض المتوسط ، عام 749 هـ (1348 م) ، وسقط فيه جمهرة من اعيان الأندلس والمغرب وعلمائهما ، وقد نشرت هذه الرسالة مع ترجمتها للألمانية بمعرفة مجلة اكاديمية العلوم الباڤارية (1863 م) .

14 ـ « الاشارة الى أدب الوزارة »

(سياســـة)

مؤلف تحدث فيه لسان الدين عن واجبات الوزير ، وما ينبغـــي توافره من الشروط فيمن يتقلد هذا المنصب ، وبالكتاب مقامة «السياسة» ، والكل ما زال مخطوطا بالأسكوريال ، وذلك ضمن المخطوطة (554) ، وقد فرغت من تحقيقـه ، مردفا به « مقامة السياسة » لنفس المؤلف . وسيظهر ذلــك قريبـــا .

15 ـ « عمل من طب لمن حب » .

(طـب)

مؤلف طبي كبير ، تكلم فيه المؤلف عن الأمراض المختلفة ، وشخّص الاصابات ، كما شرح وسائل الوقاية ، وسبل العلاج ، والكتاب مهدى من ابن

الخطيب الى السلطان أبى سالم المرينى ، فقد ألّفه من أجله عام 761 هـ ، وهو مخطوط توجد منه نسخة بمدريد ، ويقع فى 151 لوحة مَن الحجم الكبير .

16 ـ « **المسائل الطبية** » .

17 ـ « **اليوسفى فى الطب** » .

18 ـ « **رجز الأغذية** » .

19 ـ « **رسالة تكوين الجنين** » .

20 ـ « **الرجز فى عمل الترياق** » .

21 ـ « **الوصول لحفظ الصحة فى الفصول** » .

22 ـ « **رجز فى الطب** » .

23 ـ « **البيطرة والبيزرة** » .

وكلها رسائل طبية (16 ـ 23) ، ألفها ابن الخطيب فى مناسبات شتى ، وأورد ذكرها فى كتابه الاحاطة ، كما أشار الى مُعظمها المقرى فى مؤلفيْه نفح الطيب ، وأزهار الرياض .

24 ـ « **عائد الصلة** » .

(تراجـم)

يحتوى على تراجم لطائفة من الأعلام ، ممن لم يرد لهم ذكر فى كتاب « الصلة » لابن الزبير .

25 ـ ((خلع الرسن ، فى وصف القاضي أبي الحسن)) .

(رسالة شخصَية)

فى وصف القاضى أبى الحسن ، هذه رسالة كتبها ابن الخطيب ، جواباً عن الرسالة التى وجهها إليه هذا القاضى النباهى ، إثر مغادرة الأول للأندلس نهائياً ، والتجائه الى المغرب دون علم سلطان غرناطة يومئذ (الغني بالله محمد الخامس) .

26 ـ « **التاج المحلى فى مساجلة القدح المعلى** » .
(تراجم وتاريخ)

وهو عبارة عن تراجم لأعيان الأندلس فى القرن الهجرى ، وتنويه بمملكة بنى الأحمر منذ نشأتها حتى عصر المؤلف ، وقد اعتمد المقرى على هذا الكتاب فى كثير من التراجم التى أوردها فى كتابه « نفح الطيب » ، ويوجد للتاج المحلى نسخة مخطوطة ضمن مخطوط كبير بالاسكوريال (554 الغزيرى).

27 ـ « **بستان الدول** » .
(تاريخ سياسى)

كتاب سياسى شامل ، تحدث فيه المؤلف عن القضاء ، والحرب ، والصناعة وأهلها ، وطبقات الشعب ، وأفرد لكل شجرة ، بحيث ألف من المجموع هذا « البستان » ، ويبدو أن الظروف لم توات ابن الخطيب حتى يكمله .

28 ـ « **السحر والشعر** » .
(أدب)

مجموعة مختارة من شعر المشارقة والمغاربة ، فيما يتعلق منها بالوصايا والمواعظ ، اختارها ابن الخطيب لولده عبد الله حيث أهداه اليه يافعاً ، والكتاب ما زال مخطوطاً فى كل من مدريد والرباط (المكتبة الكتانية) ، وهو لدىّ الآن تحت التحقيق والدراسة .

29 ـ « **كناسة الدكان ، بعد انتقال السكان** » .
(وثائق تاريخية)

مؤلف تاريخى ، يضم مجموعة من الرسائل السياسية ، بعث بها ابن الخطيب على لسان السلطان أبى الحجاج يوسف الأول ، الى معاصره السلطان أبى عنان فارس المرينى ، فيما عدا وثيقة عقد زواج نصرى ، صدّر بها كتابه هذا تلو المقدمة ، وقد قمت بتحقيق هذا المؤلف ، من نسخة يتيمة بالاسكوريال برقم(1712 الغزيرى) وتقع فى ستين لوحة ، ونشرته دار الكتاب العربى بالقاهرة سنة 1968 م .

30 – « **أوصاف الناس فى التواريخ والصلات** » .

(تراجـــم)

كتاب يشتمل على تراجم أدبية تاريخية ، توجد له مخطوطة جيـــدة للغاية بمكتبة الاسكوريال بمدريد ، قمت بتصويرها ، وقد فرغت الآن من تحقيقه، وسيظهر قريباً .

31 – « **تافه من جمّ ، ونقطة من يمّ** » .

(شعـــر)

مصنف من أشعار أستاذ ابن الخطيب الرئيس أبى الحسن علي ابن الجيَّـــاب .

32 – « **الدرر الفاخرة ، واللجج الزاخرة** » .

(شعـــر)

مختارات من شعر صديقه وأستاذه أبى جعفر بن صفوان .

33 – « **جيش التوشيح** » .

(موشحات)

مجموعة من الموشحات الأندلسية ، جمعها ابن الخطيب فى كتـــاب أسماه بهذا الاسم ، ونسبها لأصحابها من أئمة التوشيح فى الأندلس ، وقد نشر فى تونس 1967 م .

34 – « **روضة التعريف بالحب الشريف** » .

(تصوف)

مؤلف فى التصوف ، يعزو المؤرخون الى هذا الكتاب أنه كان وثيقة الاتهام بالالحاد والزندقة ضد ابن الخطيب ، حسبما أملت الأهواء عـلى من صاغوا صك الاتهام للرجل ، حتى سيق الى الموت من أجله ، وتوجد من الكتاب نسخة مخطوطة بالرباط ، بيد أنها ناقصة ومشوهة (22)

---

22) لقد عثر الأستاذ عبد القادر أحمد عطا على نسخة مخطوطة لهذا الكتاب بالمدينة المنورة ، بمكتبة الشيخ عارف حكمت ، ولما كانت النسخة فى درجة جيدة فقد اتخذها أساساً لتحقيق الكتاب ، مسترشداً معها بنسخة أخرى عثر عليها بمكتبة الظاهرية بدمشق ، الى جانب نسخة أسعد أفندى بتركيا المصورة بمعهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية ، وقد نشر المحقق « روضة التعريف » بمعرفة دار الفكر العربى بالقاهرة عام 1968 م .

35 — « **استنزال اللطف الموجود ، فى سر الوجود** » .
(تـصـوف) .

36 — « **فتات الخوان وسقط الصوان** » .
(رسالة شعرية) .

37 — « **المختصر فى الطريقة الفقهية** » .
(ديـن) .

38 — « **مثلى الطريقة ، فى ذم الوثيقة** » .
(رسالة شخصية)

39 — « **الألفية فى أصول الفقه** » .
(رسالة دينية شعرية فى ألف بيت)

40 — « **النفاية بعد الكفاية** » .
(رسالة أدبية) .

41 — « **كتاب المحبة** » .
(اجتمـاع) .

42 — « **المنح الغريب ، فى الفتح القريب** » .
(أدب) .

43 — « **تلخيص الذهب ، فى اختيار عيون الكتب** »
(أدب) .

44 — « **مساجلة البيان** » .
(تراجم أدبية) .

45 — « **المباخر الطيبية ، فى المفاخر الخطيبية** » .
(أدب) .

هذه المؤلفات (35 — 45) وردت فى فهارس المستشرقين ، كما أشار إليها بعض المؤرخين القدامى

46 — « **رسائل فى الموسيقى** » .

47 ـ « **رسائل فى الفلسفة** » .

48 ـ « **رسائل فى الفقه** » .

وهذه رسائل أخرى متفرقة ، ذكرتها الفهارس أيضاً ، ولم يصل إلينا منها شيء .

49 ـ « **الصَّيِّب والجَهَام ، والماضى والكَهَام** » .
(شعـــر)

وهو عبارة عن « الديوان » الذى نسبه إليه حاجي خليفة ، فى كتابه « كشف الظنون » ، وتوجد للكتاب ـ بهذا العنوان ـ نسخة مخطوطة فى مكتبة القرويين بفاس . وقد حقق أخيرا بالجزائر ، وتم طبعه .

50 ـ « **طلّ الغمام ، المقتضب من الصيِّب والجَهَام** » .
(شعـــر)

وهو مختصر لديوانه السابق ، لم يعثر عليه بعد ، ولكن ورد ذكره ضمن مؤلفاته فى الاحاطة .

51 ـ « **طرفة العصر ، فى أخبار دولة بنى نصر** »
(تـــاريخ)

الفصلُ الثالث

عرض وتحليل لمعيار الاختيار

موضـــوع الكتـــاب

ذكر الوزير ابن الخطيب فى آخر كتابه « الاحاطة » أسماء مؤلفاته اجمالا ، وأورد من بينها مؤلفه «معيار الاختيار، فىذكر المعاهد والديار» على أنه مؤلف قائم بنفسه ، ثم أورده فى باب « المقامات » من مؤلفه الضخم « ريحانة الكتاب ، وتحفة المنتاب » والذى يشتمل على أكثــر من غرض ولون أدبى تاريخى .

والمعيار الذى نتعرض لدراسته عبارة عن وصف شامل لأهم مدن مملكـــة غرناطـــة ، وأهم مـــدن المغرب ، تناول فيـــه ابن الخطيـــب النواحى الجغرافية والتاريخية والاجتماعية لمعظم المدن التى أوردها .

لقد بدأ أول ما بدأ بجبل الفتح (جبل طارق) ، وهو يومئذ ضمن مملكة بنى مرين المغربية ، وكان طبيعيا أن يبدأ الوصف بالجبل ، فهو كما يقول المؤلف : « فاتحة الكتاب من مصحف ذلك الاقليم ، ولطيفة السميع العليم ، وقصـــص المهـــارق ، وأفق البـــارق ، ومتحـــف هـــذا الوطن المباين للارض المفارق » ، والجبل بالنسبة للبـــلاد الاندلسيـــة « محط طارقها بالفتح طارق » وله دوره الهام فى حماية البلاد الاندلسية حيث أنه « مسلحة من وراءه من العباد ، وشقة القلوب والاكباد » .

أما المدن الاندلسية التى أعقبها الجبل فى الوصف ، فهـــى ـــ حسب الترتيب الذى أوردها به ـــ كما يلى :

1 — اسطبونــة	Estepona
2 — مربلــة	Marabilla
3 — سهيــل	Fuenjerola
4 — مالقــة	Malaga
5 — بليــش مالقــة	Velez Malaga
6 — قمــارش	Comares
7 — المنكــب	Almuncar
8 — شلــوبانيــة	Salobrana
9 — برجــــة	Berja
10 — دلايــة	Dalias
11 — المريــة	Almaria
12 — طبــرنــش	Tabernas
13 — بيــــرة	Vera
14 — مجــاقــر	Mujacar
15 — قنتــوريــة	Cantoria
16 — برشانــــة	Purchena
17 — أوريــة	Oria
18 — بليش الشقراء	Velez Robia
19 — بسطــــة	Baza
20 — اشكــر	Huescar
21 — أنــدرش	Andarax
22 — شبالــش	Jubles
23 — وادى آش	Juadix
24 — فنيانــة	Finana
25 — غرناطــة	Granada
26 — الحمــــة	Alhama
27 — صالحــة	Zalia

28 — أليرة ومنتفريد Illora e Mouteferio
29 — لوشة Loja
30 — أرجذونة Archidona
31 — آنتقيرة Antequera
32 — ذكوان Coin
33 — قرطمة Cartama
34 — رندة Ronda

وأما المدن المغربية فهى حسب ترتيب المؤلف أيضا :

1 — بادس ، 2 — سبتة ، 3 — طنجة ، 4 قصر كتامة ، 5 — أصيلا ، 6 — سلا ، 7 — أنفا ، 8 — أزمور ، 9 — تيط ، 10 — رباط أسفى ، 11 — مراكش ، 12 — أغمات ، 13 — مكناسة ، 14 — فاس ، 15 — مدينة الملك ، 16 آقرسلوين ، 17 — سجلماسة ، 18 — تازة ، 19 — غساسة .

وعلى هذا فقد تناول ابن الخطيب أول ما تناول من مدن الاندلس مدينة « اسطبونة » ، وانتهى بمدينة « رندة » ، وهو فى تناوله هذا للمدن لم يراع ترتيبا جغرافيا ولا تاريخيا ، بل ولا أولويا ، فقد كانت مدينة غرناطة مثلا فى المرتبة السادسة بعد العشرين من وصفه ، رغم أنها حاضرة المملكة ، ولها من المبررات ما يجعلها أهلا للمرتبة الاولى من وصفه ، ولكن المؤلف حرر نفسه من كل قيد لتقديم مدينة على أخرى ، أيا كانت دواعى التفضيل ، وكيفما بلغت أهميته .

لقد كان المؤلف يتعرض للمدينة فى وصفه ، فيتناولها من معظم ما يتعلق بها ، اذ يتحدث عن موقعها الجغرافى ومكانتها التاريخية ، وحالة سكانها الاجتماعية ، فيعطينا صورة واضحة — الى حد بعيد — عن كل مدينة تناولها قلمه .

ففى وصفه لموقع مدينة « تمارش » مثلا ، وما للموقع من أهمية، يقول : انها « مودع الوفر ، ومحط السفر ، ومزاحم الفرقد والغفر ،

حيث الماء المعين ، والقوت المعين » . وأما منتجات البلد من محاصيله ، فقد أشار الى أن « به الاعناب التى راق بها الجناب ، والزياتين واللــــوز والتين ، والحرث الذى له التمكين » . وفى معرض الوصف الاجتماعــــى يستدرك ابن الخطيب ، ذاما أهل البلد حين يقول : « الا أنه عدم سهله ، وعظم جهله ، فلا يصلح فيه الا أهله » .

أما اذا ارتأى مدينة حقيقة بمدح أحوالها الاجتماعية فهو لا يقصر فى حقها ، فمثلا مدينة « المرية » — على حد قوله « محط التجار ، وكرم النجار ، ورعى الجار . ما شئت من أخلاق معسولة ، وسيوف من الجفون السود مسلولة ، وتكك محلولة ، وحضارة تعبق طيبا ، ووجوه لا تعــرف تقطيبا » وهى — الى جانب تلك الرفاهية وذلك النعيم ، واللذة والسرور المقيم — « لم تزل — مع الظرف — دار نساك ، وخلوة اعتكاف وامساك »» فهو حريـــص فى الوصف ، دقيق فى الاحاطــة ، شأن الخبير بالاماكــن والبقاع .

نأخذ أيضا مثالا لنهج المؤلف فى الاشادة بالاجتماعيات عند الناس ، وطريقته فى العرض للحقائق ، وتقصيه لها ، حين يذكر عن مدينة برشانة أن « أهلها أولو عداوة لاخلاق البداوة ، وعلى جوههم نضرة وفى أيديهـــم نداوة . يداوون بالسلافة علل الجلافة ، ويؤثرون علل التخلف على لـــذة الخلافة ، فأصبح ربعهم ظرفا قد ملىء ظرفا ، فللمجون به ســـوق ، وللمجون ألف سوق ، تشمر به الاذيال عن سوق ، وهى تبين بعض بيان عن عن أعيان» ، هذا من جانب، ومن جانب آخر لهذه المثالب، يذكر أن «وغدها (المدينة) يتكلم بملء فيه ، وحليمها يشقى بالسفيه ، ومحياها تكمن حية الجــور فيه » .

هذا ، وقد ظفرت بعض المدن الاندلسية بعناية خاصة من قلم ابن الخطيب ، كغرناطة ومالقة ، ولا عجب فلكل منهمـــا مركزهــا الادارى والسياسى ، فالاولى حاضرة ملك بنى الاحمر ، وزهرة المدن الاندلسية ،

ولها على ابن الخطيب أياد لا تنسى ، فكان عليه أن يوفيهـا حقهـا ، وأن يعطيها مستحقها ، فيحلها ــ من وصفه ــ مكانتها اللائقة ، ولكن هــذا لا يمنعه ــ كمؤرخ صادق ــ من أن يبرز لنا بعض عيوبها ؛ سواء فى طقسها الشتوى ، وبردها الذى « يمنع الشفاه من رد التحيات » ، أو الاسعار التى « معيارها يشعر بالترهات » ، وجفاف طباع بعض أهلها ، الذى يصل الى درجة « سوء الجوار ، وجفاء الزوار ، ونذالة الديار » ؛ فهذا المسلـك من ابن الخطيب نحو المدن فى وصفها يعطينا فكرة عن صدق قلمه، وتحرره من أى قيد، فغرناطة ــ وان كانت مقامه بجوار مخدوميه بنى الاحمر، ومحل سلطانه وجاهه ــ الا أن ذلك كله لا يمنعه من اعطاء كل ذى حق حقه ، وأنه فى هذا لا تأخذه لومة لائم .

لنستمع اليه فى شأن العاصمة النصرية ، حين يستهل وصف حمرائها: « كرسيها ظاهر الاشراف ، مطل على الاطراف ، وديوانها مكتوب بآيات الانفال والاعراف » ، وفى معرض موقع المدينة ، يذكر لنا أن « هواءها صاف ، وللانفاس مصاف . حجبت ــ الجنوب عنها ــ الجبـال ، فأمـن الوبا والوبال ، وأصبح ساكنها غير مبال ، وفى جنة من النبال ، وانفسحت للشمال ، واستوفت الشروط على الكمال » ، كما يتحدث مشيدا بنهـر شنيل ، وفضله على جنات غرناطة ومروجها ، فيقول « وانحـدر منهـا (جبل سييرا نيفادا) مجاج الجليد على الرمال ، وانبسط ــ بين يديها ــ المرج (فحص غرناطة) الذى نضرة النعيم لا تفارقه ، ومدارى النسيم تفلى بها مفارقه . ريع من وادية بثعبان مبين ، ان لدغ تلول شطـه تلهـا للجبين ، وولدت حيات المذانب عن الشمال واليمين ، وقلد منها اللبـات سلوكا تأتى من الحصباء بكل در ثمين ، وترك الارض مخضرة ، تغير من خضراء السماء ضرة ، والازهار مفترة ، والحياة الدنيا بزخرفها مغترة »، ان هذه الروعة البيانية ، ودقة التعابير البلاغية ، جعلت الصورة تتجسم أمامنا ، حتى لنكاد نلمس منها كل جانب .

ثم يعود المؤلف بنا من مطافه الى الحمراء مرة أخرى ، فيكشف لنا عن منشآتها الرائعة ، وجناتها الساحرة ، وكيف أنها مدرج سلالة بنى نصر ، فيقول : « وتبرجت بحمرائها القصور مبتسمة عن بيض الشرفات، سافرة عن صفحات القباب المزخرفات ، تقذف بالانهار ــ من بعد المرتقى ــ فيوض بحورها الزرق ، وتناغى أذكار المآذن بأسمارها نغمات الورق . وكم أطلعت من أقمار وأهله ، وربت من ملوك جلة .. »

أما مالقة ــ عاصمة الحموديين الادارسة ــ فيتحدث المؤلف ــ بادىء ذى بدء ــ عن تاريخها كعاصمة لهؤلاء فيقول : « كرسى ملك عتيق ، ومدرج مسك فتيق ، وايوان أكاسرة ، ومرقب عقاب كاسرة ، ومجلى فاتنة حاسرة ، وصفقة غير خاسرة » ، ثم يشيد بشهرتها الصناعية فى الفخار والحرير « .. ومذهب فخارها له على الاماكن تبريز ، الى مدينة تبريز ، وحلل ديباجها بالبدائع ذات تطريز» . وبعد أن يصور محاصيلها وفواكهها، وما اشتهر به قومها من الاسهام بالبر بأوفر نصيب ، فى تخليص أسرى المسلمين من أيدى النصارى ، ووفرة أعيانها وعلمائها ــ يتناول بعدئذ مساوىء المدينة ، فيقول : « وعلى ذلك ، فطينها يشقى به قطينها ، وأزبالها تحيى بها سبالها ، وسروبها يستمد منها مشروبها ، فسحنها متغيرة ، وكواكب أذهانها النيرة متحيرة .. وطعاما لا يقبل الاختزان ، ولا يحفظ الوزان ، وفقيرها لا يفارق الاحزان .. » الى آخر هذه المساوىء التى أوردها عن مدينة مالقة .

وهكذا نرى أن موضوع الكتاب فى وصفه للبلاد الاندلسية أو المغربية قد اختط فيه ابن الخطيب موضوعية لا تبارى ، وشمولا فى الوصف لمختلف النواحى ، التاريخية ، والجغرافية ، والاجتماعية ، والاقتصادية، فى صورة ناطقة نابضة .

منهج ابن الخطيب فى الكتـــاب

عندما كتب ابن الخطيب مؤلفه « معيار الاختيار » اختط فى التحرير طريقة خاصة ، تختلف عن معظم كتاباته فى مؤلفاته الاخرى ، ذلك أنه بدأ بمقدمة معتادة أعقبها بمحاورة ، ثم انتهى الى صميم الموضوع ، فقسمه الى مجموعتين مستقلتين ، وأدرج كل مجموعة تحت مجلس خاص، وقصر المجلس الاول على المدن الاندلسية، ثم أعقبه بالمجلس الثانى فقصره على المدن المغربية . وهكذا بدأ المؤلف كتابه فى المجلس الاول ، بما جرت به عـــادة المؤرخين والمؤلفين المسلمين ، وذلك بحمد الله تعالى ، والثناء عليه بما هو أهله ، والصلاة والسلام على رسوله ،سلى الله عليه وسلم ، كل هذا فى قالب يتناسب والموضوع الذى يتعرض له ، وهو وصف البلدان .

ثم ثنى بأن الانسان مدنى اجتماعى بطبيعته ، لا يستقيم حاله بدون مجتمع ، وبالتالى لا يقوم المجتمع بدونه ، وأنه ـــ أى الانسان ـــ أحيانـــا يتخذ سكناه حسبما اتفق ، وأحيانا يكون له ظرف الاختيار ، مرجحا من الامكنة ما غلبت حسناته على سيئاته ، وهذه الامكنة « كثيرا ما تتافر الى حكمها النفر ، وأعمل السفر » ، وأيا كان ، فانه لا توجد مدينة قد كملت من كافة النواحى كما يقول .

وبعدئذ يتحدث المؤلف عن خبر فى قالب قصة ، فهناك راو استهواه مكان ما ، فنزل به حتى حل المساء ، وحينئذ أبصر شيخا معه تلميـــــذه وحماره ، وما استقر المقام بذلك الشيخ حتى حن الى صباه ، وضـــاق بمرارة المشيب ، وقسوة الغربة ، وشعوره بأن نفسه لم تتب بعــــد ، وأخيرا يسأل الله العفو والغفران ، والقربى من رحمته يوم الحســـــاب ، معتمدا فى اجابة سؤله على شفاعة شيبه ، ثم تدور مناقشة بين الشيـــخ وفتاه ، وعندها ينبرى الشيخ ، فيحدثنا عن مدى خبراته فى أمور شتـــى

نتيجة علمه وبحثه ، وجوبه بلاد العالم ، ووقوفه بأقطار كثيرة للـــــدرس والبحث . وتكون النتيجة أن يتقرب الراوى الى الشيخ ، مطمئنا اياه الى حسن طويته ، وما عليه من خلق يؤهله لان يتشرف بالاستماع الى فيض علمه ، ويسأل الراوى الشيخ ان يصف له بلاد الاندلس ثم بلاد المغرب ، فى دقة وأمانة واخلاص ، فأجابه الشيخ الى طلبه ، وبدأ الراوى بالسؤال عن جبل الفتح (جبل طارق) وهكذا .. حتى انتهى من المدن الاندلسية بمدينة « رندة » . ثم أخبر الشيخ سائله بأن الصبح قد قارب الوجود ، وأنه قد وفاه ــ فى الوصف ــ حسابه ، ولم يبق الا أن يكافئه على هذه الذخائـــــر حتى يكون له أليفا ورفيقا ، فينثر الراوى المال بين يدى محدثه فيأخذ منه شاكرا ، وأخيرا يتفقد الراوى الشيخ على ضوء مصباح ، فلا يجد له أثرا ، « فكأن الفلك لفه فى مداره ، أو خسفت الارض به وبداره » ، فيتأســـى الراوى عن هذا الفراق بأن « لكل اجتماع من خليلين فرقة » .

هكذا ينتهى نهج المؤلف فى « المجلس الاول » من كتابه .

أما فى « المجلس الثانى » فان الراوى يلج أحد الاســــــواق ، وفى السوق « أمم تنسل من كل حدب ، وتنتدب من كل منتدى ومنتدب » ، فى بيع وشراء ، وتحايل للتعايش والكسب ، بمختلف الوسائل والاعمـــال ، فهناك « رقاة جنون ، بضروب من القول وفنون ، وفيهم كهل قد استظـــل بقيطون » ، قد ادعى العلم بالمغيبات ، والتفسير للمشكلات والاحاطــــة بأسرار الطبيعة ، وشفاء العضال من الامراض ، وفى مجال العلوم قد برع، ما بين طب ورياضة وتاريخ وجغرافية، وحديث وتفسير، ومنثور ومنظور، ومنطق وبرهان ، فهو قد جاب الاقطار فى الدرس والبحث والمعرفة . وهنا يجد الراوى بغيته ، فقد ذكره ذلك الرجل بالشيخ الاول ، فأراد أن يستكمل

معلوماته عن البلدان ، فاخترق اليه جموعا بشرية من قصاده ، وخاطبه بقوله : « بى الى تعرف البلدان جنوح وجنون ، والجنون فنون » فأجابه الشيخ موافقا ، متحفظا بأنه « لا تجود يد الا بما تجد ، والله المرشد » .

وهنا يسأله الراوى عن البلاد المغربية ، بادئا منها بـ « بادس » ، والشيخ يجيبه بمعلوماته عنها، واحدة تلو الاخرى، حتى ينتهى منها بمدينة « غساسة » ، وعندئذ « وجب اعتناء بالرحيل واهتمام ، وكل شىء الى تمام » كما قال الشيخ ، فقد انفض عن السوق أهله ، ولم يبق الا أن ينثر الراوى دنانيره ، مكافأة طيبة لمحدثه، فيتناول منها ما تستغنى به النفس، وقبل أن يتهيأ للسير لم ينس — وهو الحكيم المجرب — أن يزود الراوى بنصح منظوم ، فيه مزايا التحلى بالقناعة ، والايمان بالقضاء والقدر ، والتحفظ على السر وكتمانه ، وتحاشى التعثر بالناس ، وتقوى الله تعالى، فالقرب منه رهن بها ، وليست هناك خسارة أفدح من معصية الخالق . وأخيرا نرى الشيخ قد « ضرب جنب الحمار ، واختلط فى الغمار » وبقى الراوى يتتبع أثر الشيخ، ولكنه تعزى عن فراقه بأن «كل نظم الى انتثار»

بهذا ينهى ابن الخطيب « المجلس الثانى » ، وبانتهاء « المجلس الثانى » ينتهى الكتاب نفسه .

هذا هو المنهج الذى سلكه ابن الخطيب المؤلف فى كتابه « معيار الاختيار » ، وهو منهج — كما رأينا — قصصى ، دار فى فلك نوع خاص من القصة ، وهذا النوع هو الذى عرف من بين فنون النثر العربى باسم « المقامة » ، متخذا من المحاورة وسيلة لتشويق القارىء والمستمع ، وبخاصة فى صلب الموضوع ، عند وصفه للبلاد .

قيمة الكتاب الادبية ومدى صلتـــه بفـــن
المقامات فى الادب العربـــى

ذكرنا أن « معيار الاختيار » قد جاء فى صورة قصة محـــــدودة ، والقصة من أدق الفنون الادبية وأصعبها تركيبا ، وهى تتمتع من بين سائر فنون الادب بالذيوع والانتشار ، لما تشتمل عليه من استمالة القلـــوب ، وامتناع النفوس ، فالآداب العالمية قد زخرت بهذا اللون الغنى منذ أقدم العصور ، ولقد ورثنا عن العرب منذ جاهليتهم ذخيرة نفيسة من القصص، تناولها المشتغلون بالبحث والنقد درسا وتحليلا ، وانقسموا حيالها الـــى فريقين متباينين ، ولكل وجهة ، فبعض المستشرقين فى دراستهم للقصـــة العربية يرون مع « كارادى فو » أنه « لم يسبق الادب العربى أى أدب آخر فى نوع الاقاصيص، بينما البعض الآخر يرى أن العرب ــ ابان حضارتهم ــ زودوا لغتهم بفلسفة الشعوب وعلومهم ، وتجاهلوا أدب القصة تجاهلا يكاد يكون مطلقا ، ومن ثم جهلوا أصول الفن القصصى ، فكانت قصصهم تفقد قيمتها الفنية تبعا لذلك .

وانصافا للحق نقول : ان القصص العربى ذو ألوان مختلفة ، وقد حظيت بعض هذه الالوان بعناية العرب ، فراعوا فى صوغها مقومات القصــــة ، وأسس بنائها ، فجاء هذا اللون منها تحفة فنية ، لها قيمتها وروعتهـــا ، والبعض الآخر من ألوان القصة العربية فقد معظم هذه الاسس ، فكان مثارا للنقد ، ومحلا للملاحظة .

والقصص العربى أنواع : أشهرها القصص الدينى ، ومصــــادره التوراة والانجيل والقرآن ، ثم ما جاء على ألسنة الرواة والمحدثين مـــن أخبار الاولين وقصصهم ، مزج فيها القصاص الحقيقة بالخيال ، والتاريخ بالاسطورة . وكان الهدف من هذا النوع من القصص الوعظ والارشاد فى معظمه ، ترغيبا فى الجنة وترهيبا من النار .

ومن أنواع القصص أيضا عند العرب القصص التاريخي البطولي ، كقصة عنترة بن شداد في حروبه ، وسيف بني يزن في كفاحه ، وحرب البسوس في طولها وشناعتها ، ومنها القصص العاطفي ، كقصة « قيس المجنون بليلاه » ، وعنترة العاشق لعبلة ، وكثير الواله بعزة ، الى آخر هذه الالوان القصصية ، التي تزخر بها كتب الادب العربي، وبعض التراجم الاجنبية . على أنه من الملحوظ أن القصة العربية تطورت مع الزمن ، واتخذت في كل عصر طابعا خاصا ، رقيا عما قبل ، مع متانة في البناء ، منذ الجاهلية حتى عصرنا الحاضر ، وقد تولد عن التصرف في تركيبها نوع خاص منها ، وهو ما سمي — بين فنون النثر العربي — باسم « المقامة » ، والتي ترتكز على العناية بالاسلوب ، وتغليب الشكل على الجوهر ، فمن مقوماتها البلاغية السجع والجناس والكناية والتلاعب بالالفاظ ، ومن مقوماتها اللغوية طائفة ضخمة من شوارد اللغة ، وشواذ القواعد النحوية، ومن مقومات أسلوبها — كذلك — تضمينها بعض آيات القرآن الكريم ، أو الحديث النبوي ، أو الحكم والامثال ، أو المنثور أو المنظوم ، كما تشتمل المقامة على المعلومات الفقهية والطبية والعروضية والتاريخية ، الى غير ذلك مما عرف في عصر المولعين بصناعتها .

فالمقامة — اذن — نوع من الترف الادبي ، وميدان للتدليل على مبلغ معرفة المؤلف بالعلوم والفنون على اختلاف أنواعها ، وقد ابتدعها « بديع الزمان الهمذاني » من أشهر أدباء العصر العباسي ، ويقال : انه أنشأ حوالي أربعمائة مقامة ، ولكن لم يظفر الناس منها اليوم بأكثر من نيف وخمسين مقامة ، ومن مقاماته الشهيرة المقامة القريضية ، نسبة الى القريض ، وهو الشعر ، لانه موضوعها ، والمقامة الخمرية ، والمقامة الجاحظية ، والمقامة الدينارية ، والمقامة البصرية ، والمقامة الكوفية ، ثم قلده في نفس العصر كثيرون ، ولكن الحريري كان بارعا فيها أيضا ، ومن مقاماته المعروفة مثلا « المقامة الصنعائية » نسبة الى صنعاء ، احدى مدن اليمن المشهورة .

أما ماذا يقصد بالمقامة عموما فهو تصوير بؤس الادباء ، واحتيالهم أحيانا لكسب عيشهم ، ولها راوية ينقل الخبر ، وبطل تدور حوله حوادثها.

على أن هذه المقامة قد اختفت من الادب العربى بعد ناصف اليازجى اللبنانى فى كتابه : « مجمع البحرين » ، ومحمد المويلحى المصرى فى كتابه ذى الشبه الكبير بالمقامة « حديث عيسى بن هشام » ، اذ لم يعد أحـد بعدئذ يلتفت الى هذا اللون الادبى من أدباء عصرنا الحاضر .

هذا ، وقد كان من الطبيعى أن ينتقل فن المقامة من المشرق ـ منذ ظهوره ـ الى الاندلس ، وذلك عن طريق الرحلات التى قام بها كثير مـن الاندلسيين الى الشرق يطلبون العلم ، والذين عادوا الى موطنهم بعد أن درسوا ـ ضمن ما درسوا ـ هذا الفن ، فنشروه بين مواطنيهم ، وقـد لوحظ أن مقامات بديع الزمان الهمذانى ورسائله ـ التى أشرنا اليها ـ قد ذاعت خصوصا فى عهد ملوك الطوائف بالاندلس ، فقد قام بعض الادباء الاندلسيين يومئذ بمعارضة هذه الرسائل والسير على نمطها ، ومن هؤلاء الاديب عبد الله محمد بن شرف القيروانى ، الذى عارض مقامات البديع، حسبما يروى ابن بسام عنهذا الاديبالمعاصر للمعتضد بن عباد بأشبيلية 434 ـ 461 هـ (1042 ـ 1068 م) . كذلك روى ابن بسام عن الشاعر أبى المغيرة عبد الوهاب بن حزم المتوفى حوالى سنة 420 هـ (1029 م) أن هذا الاخير عارض رسالة للهمذانى فى وصف غلام ، وفى موضع آخر من كتاب الذخيرة يورد ابن بسام أجزاء من مقامتين ، أحداهما لابى حفص عمر الشهيد ، والاخرى لابى محمد بن مالك القرطبى ، وهذان الاديبـان عاشا فى عهد المعتصم بن صمادح بمدينة المرية الاندلسية 443 ـ 484 هـ (1051 ـ 1091 م) .

ونزيد تعريفا بصلة المغرب بالمشرق حول فن المقامة ، فنذكر أيضـا أنه فى أوائل عهد المرابطين بالاندلس انتشرت مقامات الحريرى بالمغرب على مدى واسع ، فى الوقت الذى انتشرت فيه بالشرق ، واهتم علمـاء

الاندلس بحياة مؤلف هذه المقامات ، فقد روى ابن الابار « أن كثيرا من الاندلسيين سمعوا من الحريرى مقاماته الخمسين ببستانه ببغداد ، ثـم عادوا الى بلادهم ، حيث حدثوا بها عنه » ، ومن هؤلاء الحسن بن علـى البطليوسى المتوفى عام 566 هـ (1169 م) وأبو الحجاج يوسف القضاعى البلنسى المتوفى عام 542 هـ (1147 م) .

وقد تابع الاندلسيون الاشتغال بفن المقامة حتى نهاية عهدهـم الاندلسى ، أيام بنى الاحمر فى غرناطة ، ومن أشهر أدباء هذا العصر الذين زاولوا هذا الفن الادبى الوزير لسان الدين بن الخطيب ، بمقاماته العديدة التى أنشأها ، والتى منها : الكتاب الذى نتعرض لدراسته هنا ، وهـو « معيار الاختيار » ، ومقامته « خطرة الطيف ، فى رحلة الشتاء والصيف» و « مقامة السياسة » وغيرها



وعلى ضوء ما أوجزنا بيانه عن «المقامة» ومقوماتها ، ومدى صلتها بفن القصة العربية ، وعن دور الاندلسيين فيها بالنسبة للمشارقة، نستطيع أن نزن كتاب « معيار الاختيار » فى هذا الميدان ، فنقول : انه عبارة عـن وصف قصصى ، جاء فى صورة مقامة تقليدية ، حاول بها ابن الخطيـب ــ كما حاول فى غيرها ــ أن يجارى بها من سبقوه فى هذا الميدان ، وفى سبيل ذلك حشد لها المزيد من فنون القول والبيان ، وبخاصة مقدمة كـل من المجلسين ، ونهايتهما ، حيث انصرف فيهما الى حد ما عن المعنى الى اللفظ مما أفقد المقدمة ــ خاصة ــ قيمتها الادبية ، من أديب مثل ابن الخطيب .

ولكن عندما تناول صلب الموضوع ، فانه ــ وان كـان قد عنـى بالاسلوب أيضا ــ الا أن الوصف للمدن عموما قد جاء تحفة فنية رائعة ،

فقد تناولها تاريخيا واجتماعيا وثقافيا ، وتمكن ــ رغم قيود السجـــع والجناس والكناية وغيرها ــ من ابراز هذه المعالم فى صورة مشوقة .

ومع ذلك ، نرى أن ابن الخطيب لو أطلق لنفسه العنان فى هذا المؤلف التاريخى ، وحرر نفسه من هذه القيود اللفظية التى كبل بها قلمه ــ لجاء وصفه للبلدان أبدع فنا ، وأشمل موضوعا ، فلا شك أنه حصر نفسه فى نطاق ضيق ، كانت نتيجته الحتمية أن فوت علينا المؤلف انطلاقاته المعروفة عنه ، فى تقصى المعانى ، والاحاطة بشتات الموضوع الذى يتعرض له

قيمـــة الكتاب كوثيقةٍ تاريخية

توجد لكتاب « معيار الاختيار ، فى ذكر المعاهد والديار » أكثر من مخطوطة ، فى الاسكوريال والرباط ، وفاس ، وقد ورد هذا الكتاب ضمـــن مؤلف آخر من مؤلفات ابن الخطيب ، وهو « التاج المحلى فى مساجلة القدح المعلى » (554 الاسكوريال) ، كما ورد ضمن مؤلفه « ريحانـــة الكتاب ونجعة المنتاب » حيث أورده المؤلف فى باب « المقامات » .

وقد ألف ابن الخطيب « معيار الاختيار » هذا عندما نفى الى المغرب مع سلطانه الغنى بالله ابن الاحمر المعروف بمحمد الخامس ، حيث حلا ضيفين على السلطان أبى سالم ملك المغرب (محرم 761 هـ ــ 1359 م) ولكن ابن الخطيب لم يذكر فى الكتاب تاريخ تأليفه بالضبط ، وانما عرفنـــا الفترة التى ألفه خلالها من مؤلف آخر له ، حيث ذكر به أنه دون بعض كتبه خلال سنوات المنفى الثلاث التى قضاها بمدينة سلا بالمغرب (1) . (760 ــ 763 هـ) = (1358 ــ 1361 م) ، ومن بين تلك الكتب « معيار الاختيار » ، وقدأدرج الغزيرى هذا المؤلف تحت رقم 1777 بفهـــرس المخطوطات الغربية بمكتبة الاسكوريال بأسبانيا .

---

(1) ابن الخطيب فى « نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب » ، مكتبـــة الاسكوريال بمدريد لوحة (67) .

ولما كنت قد قارنت – أثناء البحث والدراسة – بين نسخ مخطوطة هذا الكتاب ، والتى وجدتها فى كل من مدريد والرباط وفاس والقاهرة والفاتيكان ، فقد بان لى أن أكملها وأوفاها – كما ذكرت – مخطوطة الاسكوريال بأسبانيا (رقم 554) ، وقد ذكر ناسخ هذه المخطوطة أنه كتبها عام 173 هـ (1468 م) ، أى بعد تدوين ابن الخطيب للكتاب نفسه بحوالى 112 عاما تقريبا ، وبعد وفاة المؤلف بنحو 97 عاما .

وقد نشر المستشرق الاسبانى « سيمونيت » القسم الاول من « معيار الاختيار » ، بعد أن فصل عنه المقدمة التى أشرنا الى مضمونها ، وهذا القسم هو الخاص بمدن مملكة غرناطة ، وعددها أربع وثمانون مدينة ، تحت عنوان « وصف مملكة غرناطة ، فى عهد بنى نصر » (1) . ثم نشر باقى الكتاب – وهو الجزء الخاص بمدن المغرب – المستشرق الالمانى « موللر » ، متضمنا وصفا لجبل الفتح ، وسبتة ، ومراكش ، وأغمات ، فى مجموعة خاصة (2) . ولم يفت هذا المستشرق أن ينوه ببعض الاخطاء التى وقع فيها زميله الاسبانى « سيمونيت » عند تحقيقه للجزء الخاص بمدن الاندلس ، وان كان هو بدوره قد وقع فى عدة أخطاء أثناء التحقيق ، وذلك نتيجة عدم التمرس بالاساليب العربية ، ولا سيما عبارة ابن الخطيب كطابع عام لما كانت عليه اللغة فى العصور الاسلامية الوسطى .

وتجدر الاشارة الى أن قيمة « المعيار » تمكن فى التعريف بالوضعية التى كانت عليها كل من مملكتى بنى نصر وبنى مرين فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى ، وأن ابن الخطيب قد حدثنا – بحق أيضا

---

(1) راجع :
Descripcion del Reino de Granada bajo la, Dominacion de las Nazaritas (Madrid, 1861).

(2) راجع :
Beitaage zur Geschichte des Westlichen, Araber (Munchen, 1866).

خصوصا ــ عن عاصمتى كل من الاندلس والمغرب فى عصره (غرناطة وفاس) ، سالكا نفس الموضوعية تجاه كليهما ، دون أن يخفى لوما فيما لاحظه من مثالب بالنسبة لهاتين العاصمتين .

ونحن نعتقد من جانبنا أن المؤلف ــ عند تدوينه لهذا الكتاب ــ قد اعتمد على مصادر ثلاثة :

1 ــ زيارته للمدن التى تناولها قلمه :

فمن المعلوم أن ابن الخطيب كان قد وزر للسلطان يوسف الاول النصرى 733 ــ 755 هـ (1333 ــ 1354 م) ثم لابنه من بعده الغنى بالله محمد الخامس 755 ــ 760 هـ (1304 ــ 1359 م) ثم ــ للمرة الثانية ــ عام 762 ــ 793 هـ (1361 ــ 1392 م) ، وطبيعة المنصب تقتضى تفقد الوزير هناك للبلاد والثغور الاندلسية ، للوقوف على أحوالها ، وحركة دولاب العمل فيها ، ثم توجيه العمال وارشادهم ، ومن ثم تحرير التقارير عن زياراته . كما أنه رافق سلطانه أبا الحجاج يوسف الاول فى زيارته التاريخية ، والتى بدأها من غرناطة فى 17 محرم 748 هـ ــ 1347 م ، صحبة الحاشية ، وقد أفرد ابن الخطيب رسالة خاصة بهذه الرحلة ، سماها : « خطرة الطيف ، فى رحلة الشتاء والصيف » جاء فيها أن الركب الملكى ــ بعد أن غادر العاصمة ــ وصل الى مدينة وادى آش ، وهناك استقبلهم الاهالى استقبالا رائعا ، ثم اتجهت القافلة شرقا مارة ببعض المدن والحصون الهامة ، مثل : بسطة ، وبرشانة ، وهنا صور ابن الخطيب الحالة التى كان يعانيها سكان هذه المدن ، نتيجة كل من الغارات النصرانية والسيول الموسمية ، ثم زار الركب مدينة « بيرة » ، أقصى الثغور على الحدود الشرقية ، وقد ذكر لنا ابن الخطيب ما كان يشعر به سكان هذا الثغر من القلق والخوف ، من جراء هجوم الاسبان المفاجىء بين حين وآخر ، كما صور لنا وعورة موقع المدينة ،

وصعوبة مسالكها ، حيث اضطروا للاسترشاد بدليل ماهر ، يكشف لهـم طريقهم فى الجبال بين الروابى والوهـاد .

وأخيرا يعود الموكب الى قاعدته « غرناطة » ، راجعا من طريـق آخر ، مارا بثغر المرية ، حيث استعرض السلطان قطع الاسطول الحربى، واستقبل رجاله فى زيهم الرائع الانيق .

كما زار الموكب بعد المرية بعض المدن العامة ، مثل : بجانـة ، وبرشلونة وفنيانة ، وينتهى المطاف بمدينة وادى آش مرة أخرى ، ومنها الى العاصمة « غرناطة » (1) .

وبذلك أتيحت فرصة رسمية هامة للوزير ابن الخطيب ، حيث وقف على أحوال هذه المدن الاندلسية خلال هذه الرحلة ، وكون لنفسه ودون فى مذكراته فكرة عميقة موضوعية عن كل مدينة زارها الركب السلطانـى التاريخـى .

أما بالنسبة للمدن المغربية فقد زار ابن الخطيب المغرب أكثر مـن مرة ، وفى كل مرة كان يتجول فى البلاد ويتعرف عليها ، ويختلط بأهلها ، ولاسيما رجال الادارة والعلماء والخاصة ، ولابد أنه شافه الكثير منهـم برغبته فى الوقوف على معالم مدنهم وآثارهم واجتماعياتهم ، وكانـت المعاينة لديه وسيلة هامة فى وزن الحقائق ، وكشف الظنون ، وجـلاء الشكـوك .

لقد زار ابن الخطيب المغرب لاول مرة سفيرا من لدن السلطان الغنى بالله ابن الأحمر ، الى سلطان المغرب عام 755 هـ = 1354 م .

---

(1) راجع التحقيق الحديث لهـذه الرحلة فى كتاب « مشاهدات ابـن الخطيب فى بلاد الاندلس والمغرب » للدكتور أحمد مختار العبادى ، طبعة جامعة الاسكندرية 1958 ، حيث تقع هذه الرحلة بين هـذه المشاهدات ص : 25 — 35 .

ثم رجع الى المغرب مرة أخرى ، ولكن منفيا مع سلطانه المخلوع الغنى بالله ابن الاحمر ، وذلك فى محـــرم 761 ـ 1359 م ، وفى هـــذه المرة مكث بالمغرب ثلاث سنوات تقريبا ، كما أشرنا الى ذلك فى موضعه ، وفى تلك الاثناء زار بعض المدن المغربية ، ودون بعض رحلاته يومئذ فى كتابه المعروف باسم « نفاضة الجراب وعلالة الاغتراب » ، الذى وضعه بالمغرب مع بعض الكتب الاخرى ، التى منها كتابنا « معيار الاختيار »

وأخيرا استقر ابن الخطيب بالمغرب حينما فر من الاندلس ، حيث شعر بما يدسه له خصومه عند السلطان الغنى بالله ، على نحو ما هو معروف من تاريخ مأساة هذا الوزير ، فوصل المغرب عام 773 هـ ـ 1371 م ، وبقى به حتى نكب وقتل عام 776 هـ ـ 1375 م .

فهذه ثلاث زيارات قام بها المؤلف للمغرب ، سفيرا ، فمنفيا ، ففارا ناجيا بحياته أخيرا ، وتعتبر فترة النفى ــ من بين هذه الزيارات الثلاث ــ فترة البحث والدرس والتأليف عند ابن الخطيب ، فقد منح الرواتب وأقطع الاراضى ، واستقرت نفسيته الى حد سمح له بمواصلة تآليفه .

أما المرة الاولى فكان وقتها أضيق من أن يتسع للتجوال عبر المدن المغربية ، فهـــو حينئذ سفير منوط به أمر رسمى ، وذو قيـــود وحدود مـــرســـومـــــة .

وأما فى المرة الاخيرة حيث استقر نهائيا بالمغرب ، فنرجح أن ابن الخطيب لم يتجه كثيرا للبحث والتدوين ، فقد كانت الهزات السياسية بالمغرب تتناوشه ذات اليمين وذات الشمال ، بفضل مواصلة خصومـــه ــ بغرناطة ــ السعى فى القضاء عليه ، وعلى رأسهم سلطانه القديـــم « الغنى بالله » والذى تأثر الى أبعد حد بسعاية هؤلاء الخصوم ، ومـــع هذا فقد ألف ابن الخطيب ابان هذه الفترة كتابه « أعمال الاعلام ، فيمن بويع قبل الاحتلام ، من ملوك الاسلام » ، استجابة للظروف الجديدة التى أملت عليه اصدار هذا المؤلف

2 ـ الاطـلاع والسمـاع :

وهو المصدر الثانى مـن المصادر التى اعتمد عليها ابـن الخطيب فى تدوين كتابه « معيار الاختيار » ونعني به قراءته لكتب من سبقـوه من المؤرخين والكتاب فى أوصاف المدن الاندلسية والمغربية على الخصوص، وفى تاريخها الحافل بالاحداث ، وكذلك سماعه من شيوخه الذين تتلمذ عليهم ، فى أحوال المغرب منذ القدم، وأحداث المملكة الاسلامية بالأندلس، لا سيما وأنه تربى فى أحضانها ، ودرج بين ربوعها ، وجاس خلال ديارها ، فحديثه عنها حديث الخبير العالم ، ووصفه لها وصف المحيط بأسرارها . هذا بالاضافة الى مجالس ابن الخطيب العلمية ، وندواته الثقافية ، والتى كانت كثيرا ما تجمع رواة الاخبار ، وحفظة التاريخ .

3 ـ التقارير الادارية الرسمية :

وابن الخطيب كوزير ، وأمين سر السلطان ، لا بد وأن يطلع علـى كافة التقارير الرسمية ، والرسائل الادارية ، التى كانت ترد عادة الـى الديوان من عمال وحكام الاقاليم ، فهذه التقارير وتلك الرسائل وثائق تاريخية لها أهميتها البالغة ، اذ على أساسها ـ فى العادة ـ تدار سياسة الدولة ، وتوجه الامور الوجهة الصالحة ، لذلك نرى أن ابن الخطيب قـد استفاد الى حد كبير من هذه الوثائق ، بالاضافة الى المصدرين السابقين، وبذلك أمكنه أن يعطينا هذه الاوصاف لتلـك المدن فى مؤلفه « معيـار الاختيـــار » .

هذا ، وينبغى أن نشير اخيرا الى أن شخصية المؤلف وعلاقاتهـا بالآخرين لا بد وأن تنعكس على كتاباته ، وهذا ما وضح من خـلال أوصافه ابن الخطيب لبعض البلاد وأهلها ، فانه وان كان قد تعمق فـى البحث على نحو دقيق ، وحلل الاسباب والمسببات حتى جاء الموضوع

وثيقة تاريخية يعتمد عليها الى حد بعيد ـ وبخاصة اذا اعتبرنا قلـة المراجع التاريخية التى تناولت العصر الذى عاشه ابن الخطيب ، وذلك فى أخبار كل من الاندلس والمغرب ـ الا أنه لا ينبغى أن نغفل الدوافع الشخصية ، والنزعات النفسية للمؤلف أيا كان ، فهذه وتلك لا بد وأن يحسب حسابهما ، ويقام وزنهما ، فى تقييم مثل هذه الوثيقة التاريخية ، لرجل وزير كابن الخطيب ، قضى حياته بين تيارات السياسة ، تتنازعه الاهواء والدوافع ، يعطف على مسلكة البعض ، وينقم على خطته البعض الآخر ، وبالتالى يكون اتجاهه متباينا نحو كليهما ، وما يصدق على الافراد يصدق على مجموعة منها تؤلف بلدا أو مدينـة .

وللتدليل على هذا التأثر النفسى عند الكاتب ، وانعكاسه على مـا يحرره ، نذكر أن ابن الخطيب نفسه قد صب جام غضبه على مدينة سلا المغربية ، فى رسالته المسماة « مفاخرات بين مالقة وسلا » ، رغم أنـه أقام بها طيلة فترة النفى الاولى ، قرابة ثلاث سنوات ، واحتوته عزيزا مكرما ، ولكن كان قد حدث احتكاك بينه وبين بعض الفقهاء من أهـل هذه المدينة ، الامر الذى ساقه الى تأليف رسالة خاصة ، فى النيل مـن هؤلاء الفقهاء ، وهى المسماة « مثلى الطريقة ، فى ذم الوثيقة » ، فى أسلوب يفيض اقذاعا ونيلا غير كريم من الخصوم ، وعليه ـ بالتالى ـ فلم يكن من المنتظر أن يرتفع ابن الخطيب بمدينة سلا فى المفاخرات مـع مـالقـة .

فنخلص من هذا الى أن ابن الخطيب لم يسلم ـ الى حد مـا ـ من تحامل فى وصفه لبعض المدن الاندلسية والمغربية فى كتابه « معيـار الاختيـار » ، وبخاصة عندما كان يتناول أحوال سكانها الاجتماعيـة . بيد أن هذا التحامل الضئيل المفترض لن يطغى بحال على ما للكتـاب من قيمة تاريخية كبرى ، ولا يمنع الدارسين لتاريخ المغرب والاندلس ـ فى الفترة التى عاصرها ابن الخطيب ـ من الاستفادة من « معياره »

هذا الى حد بعيد . . ، اذا ما عن لهم الكشف عن الحالة الاجتماعية بهذيـــن القطرين فى ذلك العصر ، وعن الاقتصاد ، والمحصولات الزراعية ، وأهمية الاسواق ، والصناعة الاندلسية ودورها ، وما الى ذلك مما تناوله المؤلف ، تجاه البلاد الاندلسية والمغربية ، فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى .

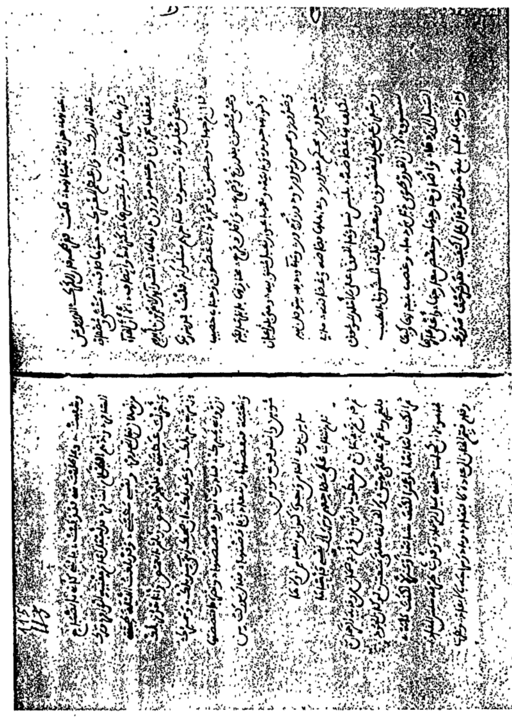
الفصلُ الرابع

كتاب

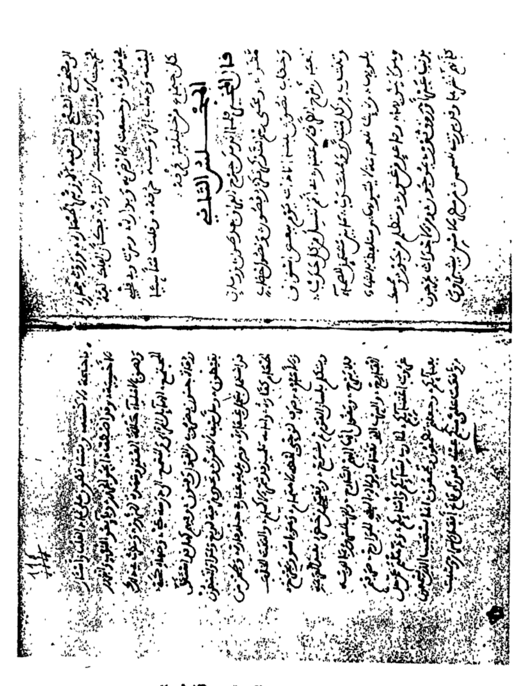
معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار

المجلس الأول

اللوحة الاولى من مخطوط « معيار الاختيار » بالاسكوريال (الغزيرى 1·777)



اللوحة الاولى من « المجلس الثاني »



اللوحة الاخيرة من « المجلس الاول »

اللوحة الاخيرة من « المجلس الثانى » نهاية المخطوط

معيـــار الاختيار ، فى ذكــر المعاهــد والديـــار

المجلس الاول :

(97 : أ)   بسم الله الرحمن الرحيم · صلى الله على سيدنا محمد ·

الحمد لله الذي انفردت صفاته بالاشتمال علـــى **أشتات الكمال** ، والاستقلال بأعباء الجلال ، المنزه عن احتلال الحلال ، المتصفة الخـــلال بالاختلال ، المعتمد بالسؤال لصلة النوال ، جاعل الارض كسكانها متغايرة الاحوال ، باختلاف العروض والاطوال ، متصفة بالمحاسن والمقابح عند اعتبار الهيئات والاوضاع والصنائع والاعمال ، على التفصيل والاجمال . فمن قام خيره بشره دخل تحت خطة الاعتدال ، ومن قصر خيره عن شره ، كان أهلا للاستعاضة والاستبدال ، ومن أربى خيره على شره وجب اليــه شد الرحال ، والتمس بقصده صلاح الحال . وكثيرا ما اغتبــط الناس بأوطانهم فحصلوا فى الجبال على دعة البال ، وفازوا فى الرمال بالآمال ، (97 : ب) حكمة (منه) فى اعتمار ربع الشمال ، وتفيـــىء أكنافه عـــن اليمين والشمال ، الى أن يدعو أهل الارض لموقف العرض والسؤال ، ويذهل — عن الاهل — عظيم الاهوال . والصلاة على سيدنا (ومولانا) (1) محمـــد المصطفى الـــذى أنقـــذ بدعوتـــه الوارفة الظلال من ظلمـــات الضلال ، وجاء برفع الاغلال ، وتمييز الحرام من الحلال . والرضا عمن له من الصحب والآل ، (**موارد الصدق عند كذب الآل**) (2) ·

1) زيادة فى « س ، ط »
2) زيادة فى « س » .

أما بعد، ساعدك السعد، ولان لك الجعد (3)، فان الانسان ـ وان انصف بالاحسان ، وابانة اللسان ، لما كان بعضه لبعض فقيرا ، نبيها كان أو حقيرا . اذ مؤنه (4) التى تصلح بها حاله . لا يسعها انتحاله ـ لزم اجتماعه وائتلافه على سياسة يؤمن معها اختلافه ، واتخاذ مدينة يقر بها قراره ، ويتوجه اليها ركونه وفراره ، اذا رابه أضراره . ويختزن بها أقواته التى بها حياته ، ويحاول منها معاشه الذى به انتعاشه . فان كان اتخاذها جزافا واتفاقا ، واجتزاء ببعض المآرب وارتفاقا ، تجاول (5) شرها وخيرها ، وتعارض نفعها وضيرها ، وفضلها ـ (98 : أ) فى الغالب ـ غيرها ، وان كان عن اختيار ، وتحكيم معيار ، وتأسيس حكيم ، وتفويض للعقل وتحكيم ، تنافر الى حكمها النفر ، وأعمل السفر ، وكانت مساوئها ـ بالنسبة الى محاسنها ـ تغتفر ، اذ وجود الكمال فاضح للآمال ، ولله در القائل :

ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها كفى المرء فخرا أن تعد معايبه

وبحسب ذلك :

حدث من يعنى بالاخبار ينقلها ، والحكم يصقلها ، والاسمار ينتقيها، والآثار يخلدها ويبقيها ، والمجالس يأخذ صدورها والآفاق يشيم (6) شموسها وبدورها ، والحلل يعرف دورها ، ويأكل قدورها ، والطرف يهديها ، والخفيات يبديها . وقد جرى ذكر تفضيل البلدان ، وذكر القاصى والدان ، ومزايا الاماكن ، وخصائص المنازل والمساكن ، والمقابح والمحاسن ، والطيب والآسن (7) .

---

3) الجعد : فى الاصل هو الشعر غير المنسق ، والسياق ينصرف الى اللئيم البخيل.
4) فى نسخة (س) « مؤنتة » بدل « مؤنه » .
5) تجاول : يقال ، تجاول القوم فى الحرب ، اى جال بعضهم على بعض .
6) يشيم : يعلم ، يقصد انه ذو دراية بمطالع الشمس والقمر فى هذه البلاد
7) الآسن : من الماء المتغير الطعم واللون والرائحة .

قال : ضمنى الليل وقد سدل المسح راهبه ، وانتهب قرص الشمس من يد الامس ناهبـــه ، ودلفت جيوشه الحبشية (98 : ب) وكتائبـــه ، وفتحت الازهار بشط المجرة كواكبه ، وجنحت الطيور الى وكونهـــا ، وانتشرت الطوافات بعد سكونها ، وعوت الذئاب فوق هضابها ، ولوحت البروق ببيض عضابها ، وباهت الكف الخضيب بخضابها ، وتسللت اللصوص لانتهاز فرصها ، وخرجت الليوث الى قسمها وحصصها ، فى منـــاخ رحب المنطلق ، وثيق الغلق ، سامى السور ، كفيل بحفظ الميسور ، يأمن ـــ بــه الذعر ـــ خائفه ، وتدفع ـــ معرة السماء ـــ سقائفه ، يشتمل على مأوى الطريد ، ومحراب المريد ، ومرابط خيل البريد (8) ، ومكاسع الشيطـــان المريد . ذى قيم كثير البشاشة ، لطيف الحشاشة ، قانع بالمشاشة . يروح ويشى ، ويقف على ريب الاعيان وأعيان الريب فلا يشى . بـــر فأكثر ، ومهد ووثر ، وأدفأ ودثر ، **(ورقى بسور استنزاله فأثر)** (9) .

فلما أزحت الكلفة ، وأقضمت جوادى العلفة ، وأعجبتنى ـــ من رفقاء الرفق ـــ الالفة ، رمقت فى بعض السقائف آمنا فى زى خائف ، وشيخا طاف منه بالارض طائف ، وسكن حتى اليمامة والطائف . جنيب (99 : أ) عكاز ، ومثير شيب أثيث الوفرة ، وقسى ضلوع توتر بالزفرة ، حكم له بياض الشيب بالهيبة ، وقد دار بذراعه للسبحة الرقطاء حنش ، كما اختلط روم وحبش . والى يمينه دلو فاهق (10) ، وعن يساره تلميذ مراهـــق ، وأمامه حمار ناهق ، وهو يقول :

هـــم أسكنونا فى ظلال بيوتهـــم ظـــلال بيـــوت أدفـــأت وأكنـــت
أبـــوا أن يملونا ، ولو أن أمنـــا تلاقى الذى يلقون منـــا لملـــت

---

8) مكاسع : مطارد ، مكان الطرد .
9) زيادة فى نسخة « س » .
10) فاهق : ممتلىء .

حتى اذا اطمأن حلوله ، وأصحب ذلوله (11) ، وتردد الى قيم الخان ــ زغلوله (12) ، واستكبر لما جاءه ــ بما يهواه ــ رسوله ، استجمع قوته واحتشد ، ورفع عقيرته وأنشد :

أشكو الى الله ذهاب الشباب	كم حسرة أورثني واكتئاب
سد عن اللذات باب الصبا	فزارت الاشجان من كل باب
وغربة طالت فما تنتهي	موصولة اليوم بيوم الحساب
وشر نفس كلما هملجت (13)	فى الغى لم تقبل خطام المتاب
يا رب شفع فى شيبى ولا	تحرمنى الزلفى وحسن المآب

ثم أن ، والليل قد جن ، فلم يبق ــ فى القوم ــ الا من أشفق وحن ، وقال ــ وقد هزته أريحية ــ (99 : ب) : على الدنيا سلام وتحية ، فقد نلنا الاوطار ، وركبنا الاخطار ، وأبعدنا المطار ، واخترقنا الاقطار (14) ، وحلبنا الاشطار (15) . فقال فتاه ــ وقد افترت عن الدر شفتاه ، مستثيرا لشجونه ، ومطلعا لنجوم همه من دجونه ، ومدلا عليه بمجونه ــ : وماذا بلغ الشيخ من أمدها ، ورفع من عمدها ، حتى يقضى منه عجب ، أو يجلى منه محتجب ؟ فأخذته حمية الحفاظ لهذه الالفاظ ، وقال : أى بنى ، مثلى من الاقطاب ، يخاطب بهذا الخطاب ! ! وأيم الله لقد عقدت الحلق (ولبست من الدهر الجديد والخلق) (16) ، وفككت الغلق ، وأبعدت فى الصبوة الطلق ، وخضت المنون ، وصدت الضب والنون ، وحذقت الفنون ،

11) ذلوله : دابته السهلة القياد .
12) زغلوله : غلامه الخفيف السريع .
13) هملجت : الهملجة ، المشى فى سرعة .
14) فى نسخة « س » وانترقنا ، ولعلها فى نسختا اصوب .
15) حلبنا الاشطار : يقصد جربنا خير الدهر وشره ، نعرفناهما .
16) زيادة فى « ط ، س » .

وقهرت ــ بعد سليمان ــ الجنون ، وقضيت الديون ، ومرضت لمرض العيون . وركبت الهمالج (17) ، وتوسدت الوذائل (18) والدمالــج ، وركضت الفاره ، واقتحمت المهالك والمكاره ، وجبت البلاد ، وحضرت الجلاد ، وأقمت الفصح والميلاد . فعدت من بلاد الهند والصين ، بالعقل الرصين ، وحذقت بدار قسطنطين (19) كتــاب اللطين (20) ، ودســت مدارس أصحاب الرواق (21) ، ورأيت غار الارواح وشجر الوقواق ،

---

17) الهمالج : الابل تمشى فى سرعة .

18) الوذائل : ج وذيلة ، وهى الرشيقة من النساء .

19) قسطنطين : ملك من ملوك الروم ، سميت حاضرة ملكه باسمه (القسطنطينية) وهى مدينة قديمة كانت مسورة باسوار حصينة تبلغ المائة ، احدها (بــاب الذهب) ، انظر ياقوت الحموى فى معجم البلدان ج 15 ص 347 .

20) كتاب اللطين : يعنى به « اللاتينية » .

21) اصحاب الرواق : يقصد الرواقيين ، وهم فرقة من الفلاسفة القدماء ، ينسبون الى الرواق ، الذى كان يعلم زينون ــ Zenon الرواقيين Stoiciens تحته ، وقد نشأت هذه الفرقة فى القرن الرابع قبل الميلاد ببلاد الاغريق ، تنقسم عندهم الفلسفة الى المنطق والطبيعة وعلم الاخلاق ، ولا يفصلون العناية الالهية عن القضاء ، كما انهم لا يميزون بين المادى والروحى ، وان الكون يسوده النظام، ويسوسه المنطق ، وان على الانسان ان ينظم نفسه ، فيحتل مكانه فيـــه . وبهذا تحققت عندهم فكرة الوحدة الكونية ، فى وقت لم يكن العلم الطبيعى عند الاغريق كثيرا ، ولكن كان حدسهم شديدا ، ونظراتهم الثاقبة كثيرا ما كانــت تصيب .
أما عن زينون الرواقى فهو مؤلف هذا المذهب (نحو 340 ــ 265 ق م) فقد ولد فى بلدة كتيوم Cition بجزيرة قبرص ، وجاء بعد الى اثينا ، وهو من اصل فينيقى ، وأكثر من وسعوا المذهب كانوا اسيويين اكثر منهم افارقة ، ويعــد المذهب آخر مجهود فلسفى فى اليونان الوثنية .
هذا ، وممن آمن بوحدة الكون فى العصور الوسطى كتاب الاديان الثلاثة ، فمن المسلمين ابن رشد (1126 ــ 1198 م) ، ومن المسيحيين كثيرون ، ومــن اليهود القباليون Kabbalists ، ثم جاء عصر النهضة بأوربا فأحيا مبــدأ الوحدة الكونية بين اهلها ، وانبرى عدة فلاسفة ينادون بها ، متأثرين بالفلسفة الافلاطونية ، وبما رسمه المذهب من آداب ، ومنهم شكسبير ، وشلر ، وكنط.
راجع : د. احمد زكى (مجلة العربى) عدد 134 يناير 1970 م .

وشريت حلل اليمن (100 : أ) ببخس الثمن (22) ، وحللت من عـــدن (23) حلول الروح من البدن ، ونظرت الى قرن الغزالة لما شدن (24) ، وأزمعت عــن العراقين (25) ، سرى القين ، وشربت من ماء الرافديـــن باليدين ، وصليت بمحراب الدمنى ركعتين ، وتركت الاثر للعين ، ووقفت حيث وقف الحكمان (26) ، وتقابل التركمان (27) وأخذت بالقدس ، عن الحبر الندس ، وركبت الولايا ، الى بلاد العلايا (28) ، بعد أن طفت بالبيت الشريف ، وحصلت بطيبة على الخصب والريف ، فى فصل الخريف ، وقرأت بأخميم (29) علم التصريف ، وأسرعت فى الانحطاط الى الفسطاط (30) ،

---

22) فى نسخة س « بأبخس ثمن » وكلاهما بمعنى .

23) عدن : عاصمة جمهورية اليمن الجنوبية الشعبية ، تقع على ساحل البحر الاحمر جنوب غربى الجزيرة العربية ، لها شهرة تجارية واسعة بفضل موقعها .
انظر : معجم البلدان ، للحموى ، ج 13 ص 89 .

24) فى نسخة (س) « اذا » بدل « لما » ، ولعلها فى نسختنا اصوب

25) العراقين : البصرة والكوفة بالعراق ، مدينتان لهما أصالتهما العلمية ولاسيما فى عصر الامويين والعباسيين .

26) الحكمان : هما ابو موسى الاشعرى ، وعمرو بن العاص ، لما احتكم اليهمـــا على بن ابى طالب ، ومعاوية بن أبى سفيان ، عقب وقعة صفـــين (37 هـ = 657 م) فى أمر الخلافة ، وانتهت بتولى معاوية .
انظر « وقعة صفين فى :
أ) المسعودى فى « مروج الذهب » ج 2 ص 20 — 22 .
ب) الطبرى — فى « تاريخ الامم والملوك » ج 6 ص 33 — 43 .

27) التركمان : قبيلة اخضعها التتار ، تعرف منذ القرن الثانى عشر الميـــلادى ، وتعيش الآن فى تركستان الغربى ، وايران ، وما وراء القفقاس .

28) العلايا : مدينة ساحلية بآسيا الصغرى ، اسسها علاء الدين كيقوباذ عـــــام 1220 م .

29) اخميم : مدينة اثرية على شاطىء النيل الشرقى بمصر ، محافظتها « سوهاج »
انظر : معجم البلدان ج 1 ص 123 .

30) الفسطاط — مدينة انشأها الفاتح لمصر عمرو بن العاص عام (20 هـ = 640 م) مكانها « مصر القديمة » حاليا احدى ضواحى القاهرة .

والمصر الرحب الاختطاط ، وسكنت مدينة الاسكندرية (31) ثغر الرباط ، وعجلت بالمرور الى التكرور (32) ، فبعث الظل بالحرور ووقفت بأشبانية الى الهيكل المزور ، وحصلت بافريقية على الرفد غير المنزور ، وانحدرت الى المغرب ، انحدار الشمس الى المغرب ، وصممت تصميم الحسام الماضى المضرب ، ورابطت بالاندلس ثغر الاسلام ، وأعلمت بها تحت ظل (33) الاعـــــلام .

فآها ــ والله ــ على عمر مضى ، وخلف مضضا (100 : ب) وزمن انقضى ، وشمل قضى الله من تفرقه ما قضى ، ثم أجهش ببكائه ، وأعلن باشتكائه ، وأنشـــد :

لبسنا فلــم نبل الزمان وأبلانــا ... يتابع أخرانا ــ على الغى ــ أولانا
ونغتر بالآمال ، والعمر ينقضـــى ... فما كان ــ بالرجعى الى الله ــ أولانا
وماذا عسى أن ينظر الدهر ما عسى ... فما انقاد للزجر الحثيث ولا لانــا
جزينــا صنيع الله شر جزائــه ... فلم نرعما ــ من سابق الفضل ــ أولانا
فيــا رب عاملنــا بما أنت أهلــه ... من العفو ، واجبر صدعنا ، أنت مولانا

ثــم قـــال :

لقــد مات اخوانـــى الصالحـــون ... فمالـــى صديق ولا لـــى عمـــاد
اذا أقبــل الصبح ولى الســـرور ... وان أقبــل الليل ولـــى الرقـــاد

---

31) الاسكندرية : العاصمة التجارية لجمهورية مصر العربية ، وتقع على ساحل البحر المتوسط ، بناها الاسكندر المقدونـــى .
انظر ياقوت الحموى فى « معجم البلدان » ج 2 ص 182 .

32) تكرور : شعب من الزنج يسكن الجزء الاكبر من وهاد « فوتة » السنغاليـــة ، ويعرف باسم Foucouleur وفى نسخة (س) « تكرور » بدل « التكرور ».

33) فى نسخة اخرى « ظلال » بدل « ظل » ، وكلاهما بمعنى .

فتملكتنى له رقة ، وهزة للتماسك مسترقة ، فهجمت على مضجعه هجوما أنكره ، وراع شاءه وعكره (34) ، وغطى بفضل ردنه سكره ، فقلت له : على رسلك أيها الشيخ ، ناب (35) حنت الى حوار (36) ، وغريب أنس بجوار ، وحائر اهتدى بمنار ، ومقرور قصد الى ضوء نار ، وطارق لا يفضح عيبا ،(ولا يثلم غيبا)ولا يهمل (37) شيبا ، ولا يمنع (101 : أ) سيبا ، ومنتاب يكسو الحلة ، ويحسن الخلة ، ويفرغ الغلة ، ويملأ القلة .

أجارتنا : انا غريبان ها هنا   وكل غريب ـ للغريب ـ نسيب

فلما وقم الهواجس وكبتها ، وتأمل المخيلة واستثبتها ، تبسم لما توسم ، وسمح بعد ما جمح ، فهاج عقيما فتر ، ووصل ما بتر ، وأظهر ما خبأ تحت ثوبه وستر ، وماج منه البحر الزاخر ، وأتى بما لا تستطيعه الاوائل ولا الاواخر . وقال ـ وقد ركض الفنون وأجالها ، وعدد الحكم ورجالها ، وفجر للاحاديث أنهارها ، وذكر البلدان وأخبارها ـ :

ولقد سئمت مآربي   فكأن أطيبها (38) خبيث

الا الحديث فانه   مثل اسمه ـ ابدا ـ حديث

فلما ذهب الخجل والوجل ، وطال المروى والمرتجل ، وتوسط الواقع ، وتشوفت للنجوم المواقع ، وتوردت الخدود الفواقع ، قلت : أيها الحبر ، واللج الذى لا يناله السبر ، لا حجبك ـ قبل عمر النهاية ـ القبر ، ـ وأعقب كسر أعداد عمرك ـ المقابلة بالقبول والجبر ، كأنا بالليل قد أظهر ـ لوشك الرحيل ـ (101 : ب) الهلع ، والغرب الجشع لنجومه

(34) عكره : ابلـه .
(35) ناب : الناب هى الناقة المسنة .
(36) حوار : بفتح الحاء وضمها ، ولد الناقة .
(37) يقصد : انه لا يعيب احدا فى غيبته ، وقد وردت هذه الجملة فى نسخة (س) .
(38) فى نسخة (س) « فكان » بدل « فكأن » وهو ما لا يستقيم وزنا .

قد ابتلع ، ومفرق الاحباب ـــ وهو الصبح ـــ قد طلع ، فأولنى عارفة من معارفك أقتنيها، وأهززلى أفنان حكمك أجتنيها، فقال : أمل ميسر ، ومجمل يحتاج أن يفسر ، فأوضح الملغز ، وابن لى الطلا (39) من البرغز (40) . وسل عما بدا لك ، فهو أجدى لك ، فأقسم لا تسألنى عن غامض ، وحلـــو وحامض ، الا أوسعته علما وبيانا ، وأريتك الحق عيانا .

قلت : صف لى البلاد وصفا لا يظلم مثقالا ، ولا يعمل ـــ فى غير الصدق ـــ وخدا ولا ارقالا (41) ، واذا قلتم فاعدلوا (42) ؛ ومن أصدق من الله مقالا (43) فقال : سل ، ولا تسل ، ولو راعك الاسل . قلت : انفض لى البلاد الاندلسية من أطرافها ، وميز ـــ بميزان الحق ـــ بين اعتدالهـــا وانحرافها ، ثم اتلها بالبلاد المرينية (44) نسقا ، واجل ـــ بنور بيانك ـــ غسقـــــا :

---

(39) الطلا : ولد الظبى ساعة ولادته ، والجمع « اطلاء » .

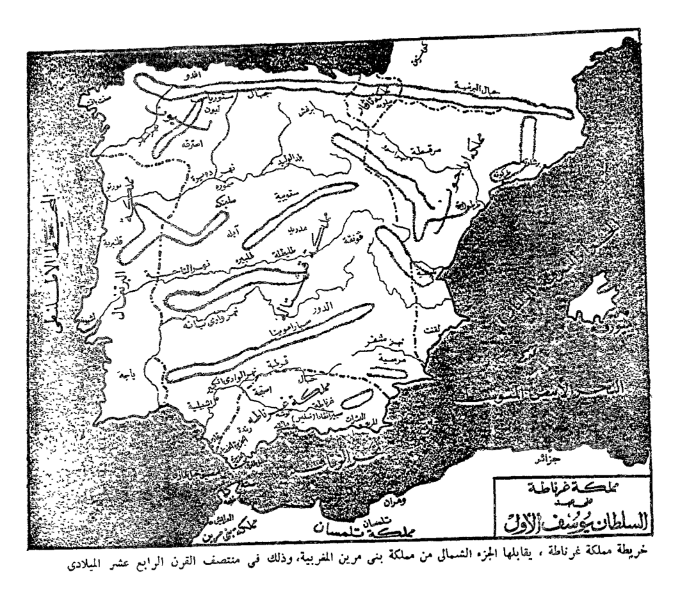
(40) البرغز : ولد البقرة ، ويقصد بالعبارة : أوضح غرضك وفصله .

(41) الوخد والارقال : نوعان من السير السريع للابل .

(42) اقتباسا من قوله تعالى : « ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا نكلف نفسا الا وسعها ، واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون » سورة الانعام ، آية : 152 .

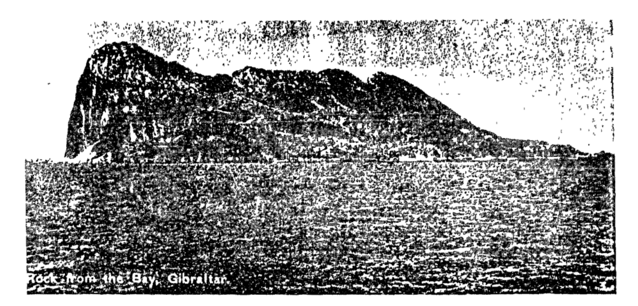
(43) اقتباسا من قوله تعالى : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات جنات تجرى من تحتها الانهار ، خالدين فيها ابدا ، وعد الله حقا ، ومن أصدق من الله قيلا » سورة النساء ، آية : 122 .

(44) البلاد المرينية : البلاد المغربية ، نسبة الى بنى مرين الذين حكموا هذه البلاد فى الفترة من 668 ـــ 869 هـ (1269 ـــ 1265 م) وكانت عاصمتهم فاس .

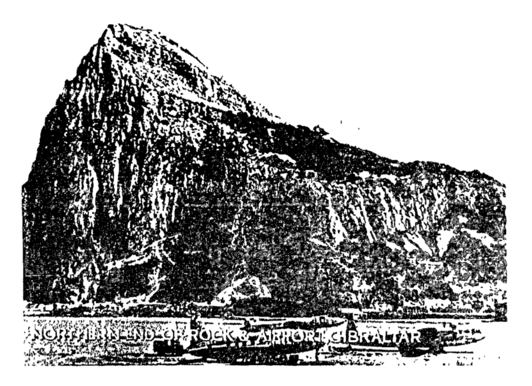


خريطة مملكة غرناطة ، يقابلها الجزء الشمالى من مملكة بنى مرين المغربية، وذلك فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى

جبـــل طـــارق



« منظر جبل طارق من البحر »



« منظر راس الصخرة »

وهات ما تقول فى « جبل الفتح » (46) :

1 ــ « جبــــل الفتــــح »

قال : فاتحة الكتاب من مصحف ذلك الاقليم ، ولطيفة السميع العليم، وقصص المهارق (47) ، وأفق البارق ، ومتحف هذا الوطن المباين للارض المفــارق ، مأهــل العقيــق (48) وبــارق (49) ، ومحــط طارقهــا ، (102 : أ) بالفتح طارق . ارم البلاد (150) التى لم يخلق مثله فيها ، وذو المناقب التى لا تحصرها الألسنة ولا توفيهــا .

حجزه البحر ، حتى لم يبق الا خضر ، فلا يناله ــ من غير تلك الفرصة ــ ضيق ولا حصر ، وأطل بأعلاه قصر ، وأظله فتح ــ من الله ــ ونصر . ساوق (51) سوره البحر فأعياه ، قد تهلل بالكلس محياه، واستقبل الثغر الغريب فحياه . اطرد صنع الله فيه ، من عدو يكفيه ، ولطف يخفيه ، وداء عضال يشفيــه . فهو خلوة العباد ، ومقام العاكف والباد ، ومسلحة من وراءه من العباد ، وشقة القلوب المسلمة والاكباد . هواؤه صحيح ، وثراه ــ بالخزين ــ شحيح ، وتجر الرباط فيه ربيح ، وحماه ــ للمال

46) جبل الفتح : هو جبل طارق « Gibraltar » نسبة الى فاتح اسبانيا (طارق بن زياد) ، وكان يسمى قبل الفتح « Calpe » بمعنى « تجويف » يتبع بريطانيا حاليا ، وتنازعها أسبانيا فى الاحقية ، وهذا خلاف قديم .
راجــع : José Carlos de luna-Historia de Gibra ltar

47) المهارق : جمع مهرق ، وهى الصحيفة .

48) العقيق : العقيق تقوله العرب لكل مسيل ماء شقه السيل فى الارض فانهــــره ووسعه ، وفى بلاد العرب اربعة اعقــة .
راجع : ياقوت الحموى ــ معجم البلدان ــ ج 14 ص 138 ، ص 139 .

49) بارق ، ركن من اركان اليمامة ، وهو جبل ، كما يطلق ايضا على ماء بالعراق ، وهو الفاصل بين القادسية والبصرة من أعمال الكوفة ، وقد عناه المتنبى بقوله:
تذكرت ما بين العذيب وبارق مجر عوالينا ومجــر السوابــق
راجع : ياقوت الحموى ــ معجم البلدان ــ ج 2 ص 319 ــ 320 .

50) ارم : الارم ، ما يهتدى به من حجارة تنصب فى المفازة ، وجمعه آرام وأروم ، والمعنى : علم البلاد .

51) ساوق : فاخــر .

والحريم ــ غير مبيح ، ووصفه الحسن لا يشان بتقبيح. الا انه ــ والله يقيه مما يتقيه ــ بعيد الاقطار، ممار بالقطار (52)، كثير الرياح والامطار. مكتنف بالرمل المخلف ، والجوار المتلف . قليل المرافق ، معدوم المشاكل والمرافق . هزل الكراع (لعدم الازدراع ، حاسر الذراع ، للقراع) (54)، مرتزق من ظل الشراع . كورة دبر ، (55) ومعتكف أزل وصبر ، وساكنه حى فى قبر (102 : ب) .

هو الباب ان كان التزاور واللقيا   وغوث وغيث للصريخ وللسقيا

فان تطرق الايام فيه بحادث   وأعزز بهقلنا : السلام على الدنيا

2 ــ « اسطبونة » (56)

قلت : فاسطبونة ؟

قال : ذهب رسمها ، وبقى اسمها ، وكانت مظنة النعم الغزيرة ، قبل حادث الجزيرة (57) .

---

(52) القطار : السحاب الغزير القطر .

(53) المرافق : اراد بالمرافق الاولى المنافع ، وبالثانية الآبار .

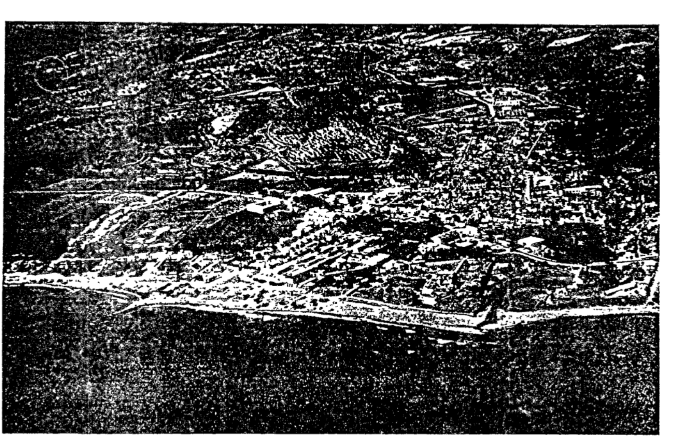
(54) لعدم الازدراع : لعدم المرعى ، وما بين القوسين زيادة وجدناها فى نسختى (س ، ر) .

(55) كورة دبر : منزل النحل والزنانير ، وقد وردت فى نسختى (ر ، د) « حبر » .

(56) اسطبونة : بلدة تقع غرب مالقة ، على شاطىء البحر المتوسط ، وتعرف فى الاسبانية باسم « Estepona »

(57) يقصد بحادث الجزيرة موقعه طريف ، وهى بالاسبانية« Batalla del Salado » حدثت بين النصارى من جهة وبين المغاربة والاندلسيين من جهة اخرى، وتمخضت عن هزيمة المسلمين ، وسقوط كل من طريف والجزيرة الخضراء (10/30/ 1340 م = جمادى الاولى 741 هـ) .
راجع : ابن خلدون فى « العبر » ج 7 ص 261 ، 262 ، والمقرى فى « نفح الطيب » ج ص 317 ، 318 ، وابن الخطيب فى اللمحة البدرية ص 92 ، 93 ، والسلاوى فى « الاستقصاء » ج 2 ص 65 ، 66 ، ودكتور لويس سيكودى لوثينا » فى مجلة الاندلس ــ ملحق 1949 م .

مربلة (غرناطة)



صورة من الجو للمدينة الساحلية

3 ــ « مــربلـــــة » (58)

قلت : فمربلـــــة ؟

قال : بلد التأذين على السردين ، ومحل الدعاء والتأمين ، لمطعــم الحوت السمين ، وحدقاتهـا مغرس العنب العديــم القرين ، الى قبــة أرين (59) . الا أن مرساها غير أمين ، وعقارها غير ثمين ، ومعقلها تركبه الارض عن شمال ويمين (60) .

4 ــ « ســهــيـــل » (61)

قلــت : فسهيــل ؟

قال : حصن حصين ، يضيق عن مثله هند وصين ، ويقضى ــ بفضله ــ كل ذى عقل رصين ، سبب عزه متين ، ومادة قوته شعير وتين . قد علم أهله مشربهم ، وأمنوا مهربهم . وأسهلت بين يديه قراه ، وجاد بالسمك واديه وبالحب ثراه ، وعرف شانه بأرض النوب (62) ، ومنه يظهر سهيل من كواكب الجنوب . الا أن سواحله فل (63) الغارة البحرية ، ومهبط

---

58) مربلة : مدينة متوسطة ، تقع غرب مالقة ، على مسافة 60 كم منها ، تعرف فى الاسبانية باسم « Marbella »

59) فى نسخة (ر ، س ، ط) « قلت ان مرساها غير أمين » ، وقد اوردها كذلـك المستشرق « سيمونيت » ، ولكن الصواب فى نسختنا .

60) فى نسخة (س ، ر) « عن شمال ويمين » بدل « من شمال ويمين » .

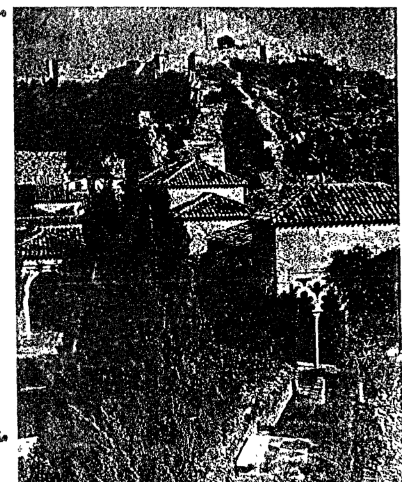
61) سهيل : ميناء على ساحل البحر المتوسط ، يعرف اليوم فى الاسبانيــة باســم Fuenjerola على مسافة 28 كم شرقى مربلة .

62) ربما يقصد « بلاد النوبة » اقصى الجنوب بجمهوريــــة مصـــــر العربية ، وشمال السودان ، والتعبير كناية عن بعد صيت المدينة .

63) فى نسخة (ر ، س) « بل » بدل « فل » .



منظر عام للمدينة وميناتها



منظـر داخلى للقصبـة

السرية غير السرية ، الخليقة بالحذر الحرية ، مسرح السائمة الاميرية ، وخدامها (103 : أ) ــ كما علمت ــ أولئك هم شر البرية (64) .

5 ــ مالقـــة (65)

قلت : فمدينة مالقـــة ؟

قال : وما القول (66) فى الدرة الوسيطة ، وفردوس هذه البسيطة ؟ أشهد لو كانت سورة لقرنت بها حذقة الاطعام (67) ، أو يوما لكانت عيدا فى العام (68) ، تبعث لهــا بالسلام مدينـــة السلام (69) ، وتلقى لها يــد الاستسلام محاسن بلاد الاسلام . أى دار ، وقطب مدار ، وهالة ابدار ، وكنز تحت جدار . قصبتها مضاعفة الاسوار ، مصاحبة للسنين مخالفة للادوار (70) ، قد برزت فى أكمل الاوضاع وأجمل الاطوار . كرسى ملك عتيق ، ومدرج مسك فتيق ، وايوان أكاسرة ، ومرقب عقاب كاسرة ، ومجلى فاتنة حاسرة ، وصفقة غير خاسرة . فحماها منيــع حريز ،

---

64) اقتباسا من قوله تعالى : « ان الذين كفروا من اهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها ، أولئك هم شر البرية » سورة البينة ، آية : 6 .

65) مالقة : Malaga مدينة على ساحل البحر الابيض المتوسط ، جنوب شرق الاندلس ، يرجع تاسيسها الى الفنيقيين عام 1200 ق. م ، حيث كانت تعرف باسم« Malaca »بمعنى : المملح ، نسبة الى الاسماك المملحة التى اشتهرت بها ، وتتوفر المدينة ايضا على أجود انواع الفواكه ، ولها شهرة فى صناعـــة الفخار Ceramica ، كانت عاصمة الحموديين الادارسة أيام ملوك الطوائف ، كما كان بنو الاحمر يعتبرونها العاصمة الثانية بعد غرناطـــــة .
راجع : المقرى فى « نفح الطيب » ج 1 ص 186 ، وياقوت الحموى فى « معجم البلدان » ج 17 ص 367 .

66) فى نسخة (ر ، س) « وما اقول » بدل « وما القول » وكلاهما بمعنى .

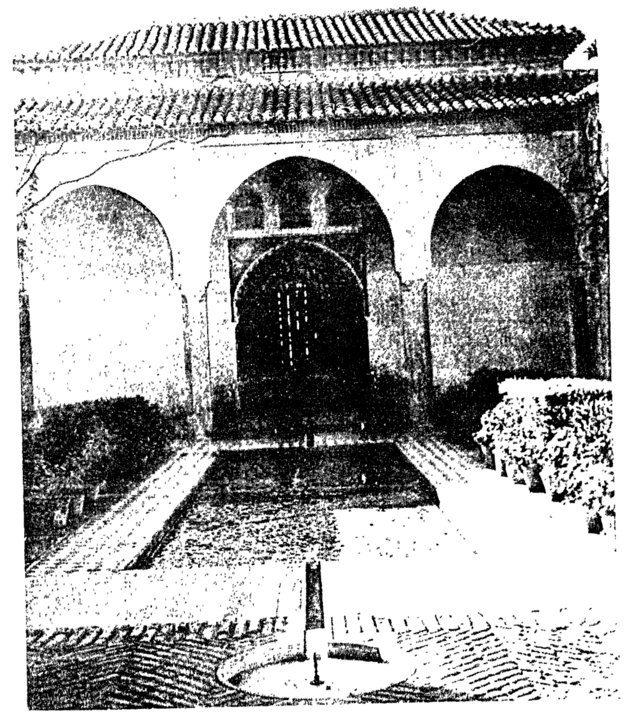
67) حذقة الطعام : الحفل الخاص بانتهاء الصبى من حفظ القرآن .

68) فى نسخة (ط ، س) « فى الايام » بدل « فى الطعام » فالتعبير فى نسختنا اعم .

69) مدينة السلام : بغداد .

70) فى نسخة (س ، ر) « مصاحبة السنين ، محالفة الادوار » ، فلعلها فى نسختنا اولـــــى .

مـالـقـة ـ الـقـصـبـة



أحـد الأفـنيـة في القصبة

اضطبنت دار الاسطول ، وساوقت البحر بالطول ، وأسندت الى جبل الرحمة ظهرها ، واستقبلت ملعبها ونهرها ، ونشقت وردها الأرج (103 : ب) وزهرها ، وعرفت قدرها ، فأغلت مهرها . وفتحت جفنها على الجفن غير الغضيض (72) ، والعالم الثانى ما بين الاوج الى الحضيض .

دار العجائب المصنوعة ، والفواكه غير المقطوعة ولا الممنوعة ، حيث الاوانى تلقى لها يد الغلب صنائع حلب ، والحلل التى تلح صنعاء فيها بالطلب ، وتدعو الى الجلب ، الى الدست الرهيف ، ذى الورق الهيف . وكفى برمانها حقاق ياقوت ، وأمير قوت ، وزائر غير ممقوت . الى المواساة ، وتعدد الاساة ، واطعام الجائع والمساهمة فى الفجائع ، وأى خلق أسرى من استخلاص الاسرى ، تبرز منهم المخدرة حسرى ، سامحة بسواريها ولو كانا سوارى كسرى . الى المقبرة التى تسرح بها العين ، وتستهان — فى ترويض روضاتها — العين ، الى غلالها المحكمة البنيان ، الماثلة كنجوم السماء للعيان ، وافتراض سكناها — أوان العصير — على الاعيان ، ووفور أولى المعارف والاديان .

(104 : أ) وأحسن (73) الشعر فيما أنت قائله
بيـت يقـال — اذا أنشدتـه — صدقـا

وعلى ذلك ، فطينها يشقى به قطينها ، وأزبالها تحيى بها سبالها ، وسروبها يستمد (74) منها مشروبها ، فسحنها (75) متغيرة ، وكواكب

71) تبريز : مدينة فى ايران ، وهى قاعدة اقليم « أذربيجان الشرقية » ، وتشتهر بصناعة الطنافس والحرير.
72) اضطبنت : وافقت .
73) فى نسختى (س ، ط) « مما » بدل « فيما » .
74) فى نسختى (ط ، د) « يستعمل » بدل « يستمد » .
75) فى نسختى (ر ، س) « فسخهما ، فساحاتها » بدل « فسحنها » فلعلها فى نسختنا أولى .



قصبة مالقــة (منظر جانبي)

أذهانها النيرة متحيرة ، وأقطارها جد شاسعة ، وأزقتها لزجة (76) غير واسعة ، وآبارها تفسدها أزفارها ، وطعامها لا يقبل الاختزان ، ولا يحفظ الوزان ، وفقيرها لا يفارق الاحزان ، وجوعها ينفى به هجوعها ، تحث (77) على الامواج أقواتها ، وتعلو على الموازين غير القسط أصواتها ، وأرحيتها تطرقها النوائب ، وتصيب أهدافها السهام الصوائب ، وتعد بها الجنائب ، وتستخدم فيها الصبا والجنائب ، وديارها الآهلة بالسكان قد صم بالنزائل صداها ، وأضحت بلاقع بما كسبت يداها ، وعين أعيانها أثر ، ورسم مجادتها قد دثر ، والدهر لا يقول لعا لمن عثر (78) ، ولا ينظم شملا اذا انتثر . وكيف لا يتعلق الذام ، ببلد يكـــثـــر به الجـــذام ! محلة بلواه آهلة ، والنفوس — بمعرة عدواه — جاهلـــة .

ثم تبسم عند انشراح صدر ، وتذكـــر (79) قصـــة (104 : ب) الزبرقان بـــن بـــدر (80) .

تقـــول هذا مجاج النحل تمدحـــه — وان ذممت تقل (81) قيءالزنابير
مدح وذم ، وعين الشيء واحـــدة — ان البيان يرى الظلماء كالنور (82)

---

(76) فى نسخة (س) « حرجة » .

(77) فى نسخة (ط) « تحط » بدل « تحث » .

(78) مثل يضرب عند العرب ، ومعناه : ان الدهر لا يدعو لك بالانتعاش اذا عثرت .

(79) فى نسخة (س) « وذكر » بدل « وتذكر » .

(80) تتلخص قصة الزبرقان بن بدر فى : ان النبى صلى الله عليه وسلم سأل عمرو ابن الاهتم عن الزبرقان بن بدر ، فقال : « مانع لحوزته ، مطاع فى ادنيه » فقال الزبرقان : اما انه قد علم أكثر مما قال ، ولكنه حسدنى شرفى ، فقال عمرو : « اما لئن قال ما قال : فوالله ما علمته الا ضيق الصدر ، زمر المروءة ، لئيـــم الخال، حديث الغنى» ، فلما رأى عمرو انه قد خالف قوله الاول، ورأى الانكار فى عينى الرسول ، قال : « يا رسول الله ، رضيت ، فقلت احسن ما علمـــت ، وغضبت فقلت اقبح ما علمت ، وما كذبت فى الاولى ، ولقد صدقت فى الاخرى » فقال الرسول عند ذلك : « ان من البيان لسحرا » .
انظر : الجاحظ فى « البيان والتبيين » . ج 1 ص 52 .

(81) فى نسخة (ط) « فقل » .

(82) فى نسخة (ط ، س) « فى النور » بدل « كالنور » .

6 ــ « بليــش مالقــة » (83)

قلت : فبليــــش ؟

قال : جادها المطر الصيب ، فنعم البلد الطيب ، حلى ونحــر ، (وبــر) ولوز وتين ، وسبب من الامن متين ، وبلد أمين ، وعقار ثمين ، وفواكه عن شمال ويمين ، وفلاحة مدعى انجابها لا يمين . الا أن التشاجر بها أنمى من الشجر ، والقلوب أقسى من الحجر ، ونفوس أهلها بينة الحسد والضجر ، وشأنها غيبة ونميمة ، وخبث (84) مائها ــ على مــا سوغ الله من آلائها ــ تميمة (85) .

7 ــ « قمــارش » (86)

قلت فقمــارش ؟

قال : مودع الوفــر ، ومحــط السفــر ، ومزاحم الفرقــد (87) والغفر (88) ، حيث المــاء المعين ، والقوت المعين . لا يخامر قلــب

---

83) هى بالاسبانية « Velez Malaga » موقعهــا غرب مدينــة مالقــة علــى مسافة 34 كم . وقد تحدث ابن بطوطة عنها فى « الرحلة » بما يؤيد وصف ابن الخطيب هنا (رحلة ابن بطوطة ج 2 ص 187) .

84) فى نسخة (ر ، س) « وخبيث » .

85) التميمة : تجمع على تمائم ، وهى للاطفال مثلا ما يوضع على صدورهــم أو جباههم من تعاويذ ، يعتقد اهلوهم انها تقيهم شر الجوائح وعين الحسود ، قال الشاعــر :

واذا المنية أنشبت اظفارهــا   الفيت كل تميمة لا تنفــع

والقصد فى موضوعنا : أن المؤلف يعلل لخبث ماء بليش ، بانه تعويذة من حسد الحساد ، لما أنعم الله به عليها من النعم التى عددها .

86) قمارش : هى« Comares » احدى الحصون الهامة ايام مملكة غرناطة ، وتقــع قربهــــا .

87) الفرقد : البقر الوحشى .

88) الغفر : ولد الوعل .

المنكب

مرفا نزول عبد الرحمن الداخل

مؤسس دولة بني امية بالاندلس



صورة من البحر

الثائر به خطرة وجله ، الا من أجله . طالما فزعت اليه نفوس الملــوك الاخائر بالذخائر ، وشقت عليه أكياس المرائر فى الضرائر . وبه الاعناب التى راق بها الجناب ، والزياتين ،واللوز والتين ، والحرث الذى له التمكين، والمكان المكين . الا أنه عدم سهله (89) ، وعظم جهله ، فلا يصلح فيه الا أهلـــه

8 ـ « المنكـــــب » (90)

قلت : (105 : أ) فالمنكــب ؟

قال : مرفأ السفن ومحطها ، ومنزل عباد المسيح ومختطها . بلدة ,معقلها منيع ، وبردها صنيع ، ومحاسنها غير ذات تقنيع . والقصــر المفتح الطيقان ، المحكم الاتقان ، والمسجد المشرف المكان ، والاثر المنبىء عن كان وكان ، كأنه مبرد واقف ، أو عمود فى يــد مثاقف . قد أخذ من الدهر الامان ، وتشبه بصرح هامان (91) ، وأرهفت جوانبه بالصخر المنحوت ، وكاد أن يصل(مــا) بين الحوت والحوت (92) . غصــت

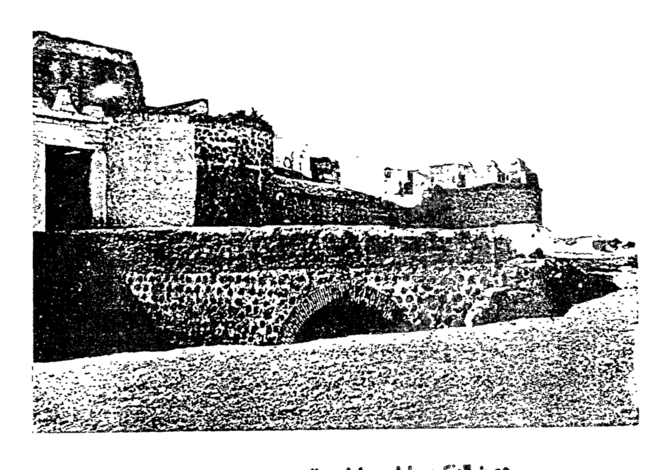
---

89) يرمى بهذه الكناية الى سوء خلق اهل البلد .

90) المنكب : مرفأ ساحلى مرتفع ، يقع جنوب شرق الاندلس بمقاطعة غرناطة ، يدعى الآن « Almunecar وقد نزل الامير الاموى عبد الرحمن بن معاوية بهــذا الميناء عند دخوله الاندلس فى ربيع الاول 138 هـ = سبتمبر 755 م ، وهــذا الامير هو الذى عرف بعدئذ بلقب « الداخل » .
راجع : الادريسى فى « نزهة المشتاق » ـ ص 199 ـ نشر دوزى 1866 م ، وكذا « الروض المعطار للحميرى ص 186 .

91) يرمى الى الصرح الذى أمر فرعون وزيره هامان بتشييده له ، فى قوله تعالى : « وقال فرعون ياأيها الملأ ما علمت لكم من اله غيرى ، فاوقد لى يا هامان على الطين ، فاجعل لى صرحا لعلى أطلع الى اله موسى ، وانى لاظنه من الكاذبين » القصص : 38 .

92) يعنى بالحوت الاول : السمك ، وبالآخر : نجم ، كناية عن عظم ارتفاع القصر .



حصن المنكب (اول محط لعبد الرحمن الداخل)

ــ بقصب السكر ــ أرضها ، واستوعب بها (93) طولها وعرضها ، زبيبها فائق ، وجنابها رائق .

وقد مت ــ اليها ــ جبل الشوار (94) بنسب الجوار . منشأ الاسطول ، بعدته (95) غير ممطول ، وأمده لا يحتاج الى الطول . الا أن اسمها مظنة طيرة تشتنف (96) ، فالتنكيب ــ عنها ــ يؤتنف (97) . وطرقها (98) يمنع شر سلوكها من تردد ملوكها ، وهواؤها فاسد ، ووباؤها مستأسد ، وجارها حاسد . فاذا التهبت السماء ، وتغيرت بالسمائم (99) المسميات والاسماء ، فأهلها ــ من أجداث بيوتهم ــ يخرجون (100) ، والى جبالها يعرجون . والودك اليها مجلوب ، والقمح بين أهلها مقلوب ، (105 : ب) والصبر ــ ان لم يبعثه البحر ــ مطلوب (101) ، والحرباء ــ بعرائها ــ مصلوب (102) ، والحر ــ بدم الغريب ــ مطلوب (103) .

---

93) فى نسخة (ر) « فيها » بدل « بها » .

94) يقصد به جبل « Sierra del Cazulas »
راجع فى هذا كلا من الحميرى فى « الروض المعطار » ص 112 ، وكـذا : « سيمونيت » فى تحقيقه ص 47 .

95) فى نسخة (ط) « نوعدها » .

96) فى نسخة (س) « تستنف » .

97) يؤتنف : يبتدىء .

98) فى نسختى (س ، ط) « وطريقها » .

99) السمائم : الريح الحارة .

100) اقتباسا من قوله تعالى : « يوم يخرجون من الاجداث سراعا ، كأنهم الـى نصب يوفضون » سورة المعارج ، آية : 43 .

101) لعله يقصد أن القمح هو الآخر يجلب من الخارج ، ثم يصرف بين اهل المدينة، فان لم تأت به السفن فالصبر نافذ .

102) لعل السبب لهذا شدة الحرارة ، كما أسلف ، ويبقى الاعتراض على تذكيـر « مصـلوب » والحرباء مؤنثة ، وعلى هذا المرجـع انه يقصد بالحربـاء قاطع الطريق العاتى ، بدليل ما بعده ، ويميل « سيمونيت » الى ذلك .
راجع : سيمونيت فى تحقيقه ص : 47 .

103) ربما يرمى بذلك الى أن اهلها شرار يعترضون طريق الغريب ، بغية السلب، ولو أدى بهم ذلك الى قتل الغريب ، ومن ثم يكون القصاص منهم .

9 ــ « شلــوبانيــة » (104)

قلت : فشلوبانيــة ؟

قال : أختها الصغرى ، ولدتها التى يشغل بها المسافر ويغرى ، حصانة معقل ، ومرقب متوقل ، وغاية طائر ، وممتنع ثائر ، ومتنزه زائر ، تركب ـــ بدنها ــ الجداول المرفوعة ، وتخترق ــ جهاتها ــ المذانــب المفردة والمشفوعة ، ففى المصيف تلعب بالعقل الحصيف ، وفى الخريف تسفر عن الخصب والريف . وحوت هذه السواحل أغزر من رملــه ، تغرى (105) القوافل الى البلاد بحمله (106) ، الى الخضر الباكرة ، والنعم الحامدة للرب الشاكرة . وكفى بمترايل (107) من بسيطها محلة مشهورة ، وعقيلة ممهورة ، ووداعة فى السهل غير مبهورة (108) . جامعها حافل ، وفى حلة الحسن رافل . الا أن أرضها مستخلص السلطان بين الاوطان ، ورعيتها عديمة الاعيان ، مروعة على الاحيان . وتختص

---

(104) شــلوبانية : بلدة على ساحل البحر الابيض المتوسط ، تبعد بمسافة 16 كلــم شــرق المنكب ، وتعرف فى الاسبانية باسم « Salobrena » تحيط بها الجبال من الشمال والغرب ، وبها حصن أندلسى من اهم الآثار الاندلسية .، وهـــو يشــرف على المدينة من ناحية الشرق من ارتفاع شاهق ، وقد سقطـــت شــلوبانية فى يد الاسبان فى نفس العام الذى سقطت فيه المنكب ، أى عـــام 1489 م ، والى شلوبانية ينتسب امام النحو الاندلسى « ابو على الشلوبين» المتوفى باشبليلية عام 645 هـ (1247 م) .

(105) فى نسخة (س) « تغدو » .

(106) فى نسخة (س) « تحمله » .

(107) مدينة تسمى الآن « Motril » ، يبلغ تعداد سكانها حاليا 50.000 نسمـــة تقريبا ، تبعد عن مالقة بنحو 107 كم ، كما تبعد عن مدينة غرناطة شرقـــا بنحو 74 كم تجاه ساحل البحر الابيض المتوسط ، تشتهر بزراعـــة قصـــب السكر ، ولها أهمية اقتصادية بين مدن غرناطة ، حيث انها مركز هـــام للمواصــلات .

(108) غير مبهورة : غير مفضولة .

شلوبانية بمزية البنيان ، ولكنها غاب الحميات ، غير أمينة على الاقتيات ، ولا وسيمة الفتيان ولا الفتيـــات (109) .

10 — « بـــرجـــة » (110)

قلت : فبرجـــة ؟

قال : تصحيف وتحريف ، وتغيير فى تعريف (111) . ما هى الا بهجة ناظر ، وشرك خاطر ، ونسيجة (106 : أ) عارض ماطر ، ودارين (112) نفس عاطر . عقارها ثمين ، وحرمها أمين ، وحسنها باد وكمين ، عقود أعنابها قد قرطت آذان الميس (113) والحـــور (114) ، وعقائل أدواحها مبتسمة عن ثغور النور . وسيطها متواضع عن النجد ، مرتفع عن الغور ، وعينها سلسالة ، وسبائك (115) المذانب منها مسالة ، تحمل الى كل جهة رسالة ، ودورها فى العراء مبثوثة **(وركائب النواسم بينها محثوثة)** ، لا تشكو بضيق الجوار ، واستكشاف العوار ، وتزاحم الزوار .

مياه وظلال ، وسحر حلال ، وخلق دمث كثراها ، ومحاسن متعددة كقراها ، ولطافة كنواسمها عند مسراها ، وأعيان ووجوه ، نجل العيون ،

---

109) فى نسختى (ط ، س) « والفتيات » بدون « لا » .
110) برجه : هى « Berja » تتبع شرق الاندلس ، وتتبع اقليم المرية .
111) يصح أن يكون اسم المدينة مصحف عن « بهجة » ومحرف عن « برج » ، وتقرأ معرفة « البرج » ، وهذا مقصد ابن الخطيب من تعبيره عنها .
112) دارين : مكان بالبحرين يجلب اليه المسك من الهند ، وينسب اليها . وقد ورد هذا المكان كثيرا فى الاشعار العربية ، قال بعضهم :

يمرون بالدهنا خفافا عيابهم   ويرجعون من دارين بجر الحقائب

113) الميس : نوع من الشجر . يوصف بضخامة الادواح والغصون .
114) الحور : نوع من الكروم ينهض على ساق .
115) فى نسخة (ط) « وسنابك » .

بيض الوجوه ، غلتهم الحرير ، ومجادتهم غنية عن التقرير . الا أن متبوآها بسيط مطروق ، وقاعدتها فروق (116) ، ووتدها مفروق (117) ، ومعقلها خرب ، كأنه أحدب جرب ، ان لم ينقل اليه الماء ، برح به الظماء ، ولله در صاحبنا اذ يقول :

يـا بسيطـا بمعانـى بـرجـه أصبـح الحسن بـه مشتهـرا
لا تحـرك بفخـار مقـولا فلقـد ألقمـت منهـا حجـرا

والبر بها نزر الوجود ، واللحم تلوه وهما طيبتا الوجود . والحرف (106 : ب) بها ذاوية العود ، والمسلك اليها بعيد الصعود .

11 ــ « دلايــــة » (118)

قلت : فدلايــــة ؟

قال خير رعاية وولاية ، حرير ترفع عن الثمن ، وملح يستفد على الزمن ، ومسرح معروف ، وأرض ينبت بها جبن وخروف . الا أنها لسرايا العدو البحرى مجر العوالى ، ومحل الفتكات على التوالى ، فطريقها صوى (119) ومشاهد ، والعارف ــ فى مثلها ــ زاهد .

---

116) تاعدتها فروق : اى ان ارضها عرضة للغارات ، التى تجعلها جزعة يتملكهـا الخـوف .

117) وتدها مفروق : كناية عن أن مبانيها يفرقها نهر او واد مثلا ، والتعبير اصطلاح عروضـى ، والتورية واضحـة .

118) دلاية : هى « Dalías » احدى القرى التابعة لولاية المرية ، تبعد بنحـو 9 كم جنوب شرق برجة .

119) صوى : ما يوضع فى الطرق من احجار كعلامات ، وفى نسخ (س ، ط ، ر) « هوى » . وقد أوردها « سيمونيت » هكذا ، ولعل الصواب فى نسختنا .

12 ـ « المـريــة » (120)

قلت : فمدينة المريــة ؟

قال : المرية هنية مرية ، بحرية برية ، أصيلة سرية ، معقل الشموخ والاباية ، ومعدن المال وعنصر الجباية ، وحبوة الاسطول (121) ، غير المعلل بالنصر ولا المطول ، ومحط التجار ، وكرم النجار ، ورعى الجار . ما شئت من أخلاق معسولة ، وسيوف من الجفون السود مسلولة ، وتكك محلولة ، وحضارة تعبق طيبا ، ووجوه لا تعرف تقطيبا ، ولم تزل ـ مع الظرف ـ دار نساك ، وخلوة اعتكاف وامساك .

---

(120) المرية « Almaria » مدينة كبيرة جنوب شرق الاندلس ، ومن اجمل الثغور والمدن الاندلسية ، وهى عاصمة الولاية المسماة ، بهذا الاسم ، يبلـــغ سكانها اليوم 85.000 نسمة تقريبا ، واهم صادراتها الحديد والرصـــاص والفاكهة ، وكانت فى العهد الاسلامى من اهم ثغور الاندلس الجنوبية ، بناها الخليفة الاموى عبد الرحمن الناصر عام 344 هـ = 955 م ، وسقطت فى يد الاسبان فى فبراير 1490 م (895) .

راجع : الروض المعطار للحميرى ص 183 ، 184 ، وكذلك ما ذكـــره المستشرق « زيبولد » بدائرة المعارف الاسلامية ، عن وضعية هذه المدينة فى العهد الاسلامى ص 319 (Zeybold, Enc. ISl, 1, P. 319)

(121) يقصد القاعدة التى هى مرسى الاسطول .

(122) فى نسختى (س ، ر) « وانف » وهكذا ورد عند « سيمونيت » ، فلعل الصواب فى نسختنا ، اذ يرمى المؤلف بتعبيره هذا الى أن معظم اسم المدينة يعنـــى « المرارة » التى ذاتها العدو فانقلب عنها .

أ.د سرية

صورة للقصبة العربية من الجو

أرغم أهلها أنف الصليب ، لما عجم منها بالعود الصليب ، وألف (122) لامها وألفها حكم التغليب ، فانقلب منها آيسا (123) عند التغليب :

يســأل عـــن أهــل المريــة سائـــل
وكيــف ثبات القوم والروع باســر

(107 : أ) قطا دارج فى الرمل فى يوم لذة
ولهو ، ويوم الروع فتخ كواســر (114)

بحرها مرفأ السفن الكبار ، وكرسيها هو العزيز عند الاعتبــار ، وقصبتها سلوة الحزين ، ومودع الخزين ، وفلك المنتزين . وهى محــل الغلل (125) المجدية ، والاندية (126) المشفوعة الاردية ، ولواديهــا المزية على الاودية . حجة الناظر المفتون ، المكسو الغصون (127) والمتون ، بالاعنــاب والزيتــون .

123) ينبغى ان نشير هنا الى هذه المؤامرة السرية الخطيرة التى تمت بين قشتالة واراجون على غزو مملكة غرناطة فى آن واحد عام 1309م (709هـ) . وتتلخص هذه المؤامرة فى ان تهاجم الجيوش القشتالية مدينة الجزيرة الخضـــــراء Algociras بالجنوب ، بينما تهاجم الاساطيل الارجونية ثغور المرية من الشرق ، ويتابع الطرفان هجومهما حتى يتقابلا فى غرناطة نفسها ، وقــــد تعرضت مدن أندلسية كثيرة لشر هذا الاتفاق ، وكانت المرية اكثر المدن ابتلاء بهذا الهجوم ، وقد فشل المشروع الهجومى بصمود هذه المدن .
انظر : ابن القاضى فى « درة الحجال فى غرة اسماء الرجال » ج 1 ص : 71 وما بعدها ، نشر علوش . الرباط 1934 م ، وقد ترجم النص الى عدة لغات، منها ترجمة اسبانية لسانشث البرانث فى :
Sachez, Alborernez, La España Musulmana, P. 386-392.

124) فتخ : الاسد ذوات الكف العريض .

125) فى نسختى (س ، ط) « والحلل » .

126) فى نسخة (ط) « والارديــة » .

127) فى نسخة (ط) « الخصور » .

بلد الخام (128) ، والرخام ، والذمم الضخام ، وحمتها (129) بديعة الوصف ، محكمة الوصف ، مقصودة للعلاج والقصف . حرها شديد، وذكرها طويل مديد ، وأثرها على البلى (130) جديد . الا أن مغارمها ثقيلة ، وصفحة جوها ــ فى المحول ــ صقيلة ، وسماؤها بخيلة ، وبروقها لا تصدق منها مخيلة ، وبلالة النطية منزورة العطية ، وسعرها من الاسعار غير الوطية . ومعشوق البر بها قليل الوصال ، وحمل البحر صعـب الفصال (131) ، وهى متوقعة الا أن يقى الله طلوع النضال ، وعادة المصـــال (132) .

13 ــ « طبـرنـــش » (133)

قلت : فطبرنش ، من شرقيهـا ؟

قال : حاضرة البلاد الشرقية (134) ، وثنية البارقة الأفقية . مـا شئت من تنجيد بيت ، وعصير زيت (135) ، (107 : ب) واحياء أنس

---

128) فى نسختى (ط ، ر) « الكتان » نفى نسختنا اعم .

129) حمتها : لا يقصد بلدة الحامة « Alhama »التى سيفرد ابن الخطيب لها وصفا خاصا بها بعد قليل . وانما يقصد العين الحارة الخاصة بالمرية ، وذلك خلافا لما ذكر د. العبادى فى « المشاهدات » .

130) فى نسخة (ر ، س) « البلاد » ، وقد أوردها « سيمونيت » كذلك ، ولعلها فى نسختنا اصوب .

131) فى نسختى (ر ، ط) « العضال » وقد اوردها « سيمونيت » كذلك ، ولعـل الصواب فى نسختنا ، فهو يعنى أن حمل السفن من قمح وخلافـه صعـب الفصال ، وهو كناية عن قلة البر وغلاؤه .

132) المصال : الكناح .

133) طبرنش : هى« Tabernas » وتعنى باللاتينية : حوانيت واكواخ .
انظر : سيمونيت فى تحقيقه . Simonet. O.P. Cit. P. 103

134) فى نسخة اخرى « البلاد المشرقية » .

135) فى نسخة (س) « وعصر الزيت » .

ميت ، وحمام طيب ، وشعب تنثر فيه دنانير أبى الطيب (136) . الا أنها محيلة الغيوث ، عادية الليوث ، متحزبة الاحزاب (137) شرهة الاعزاب . ولو شكر ــ الغيث ــ شعيرها ، أخصبت ــ البلاد ــ عيرها .

14 ـ « بيـــــرة » (138)

قلت : فبيــــرة ؟

قال : بلدة صافية الجو ، رحيبة الدو (139) ، يسرح بها البعير ، ويجم بها الشعير ، ويقصدها ــ من مرسية وأحوازها ــ العير ، فساكنها بين تجر وابتغاء أجر ، وواديها نيلى الفيوض والمدود ، مصرى التخــوم والجدود ، ان بلغ الى الحد المحدود ، فليس رزقه بالمحصور ولا بالمعدود . الا أنها قليلة المطر ، مقيمة على الخطر ، مثلومة الاعراض والاسوار ، مهطعة لداعى البوار ، حليفة حسن مغلوب ، معللة بالماء المجلوب ، آخــذة باكظام القلوب ، خاملة الدور ، قليلة الوجوه والصدور ، كثيرة المشاجرة والشرور ، برها أنذر من برها فى المعتمر والبور ، وزهد أهلها فى الصلاة

---

136) يرمى بذلك الى وصف المتنبى (303 ــ 354 هـ/915 ــ 965 م)لشعب بوان، فى تساقط اشعة الشمس من خلال الاوراق على الارض ، وكانها الدنانير ، وشعب بوان هو مكان بفارس قرب شيراز ، يوصف بكثرة المياه والاشجار .
قال المتنبى فى وصفه :

غدونا تنفض الاغصان فيـــه	على اعرافها مثل الجمـــان
فسرت وقد حجبن الشمس عنى	وجئن من الضياء بما كفانـــى
وألقى الشرق منهـــا فى ثيابــى	دنانيــــر تفـــر من البنـــان

راجع : العرف الطيب ــ لليازجى ج 7 ص 603 ــ 612 .

137) فى نسختى (ر ، س) « شريفة » فلعل الصواب فى نسختنا .

138) بيرة : هى بالاسبانية « Vera » تقع شمال شرق مملكة غرناطة ، وهى بلدة مرتفعة ، على ساحل البحر الابيض المتوسط ، مما اكسبها اهميتها الحربية .

139) الدو : الفضاء خارج المدينة .

شائــع فى الجمهور ، وسوء ملكــة الاسرى من الذائع (**بهــا**) (140) والمشهـــــــور .

(مــا قام خيرك يا زمان بشـــره   أولى‌لنا ما قل منك‌وما كفى) (141)

15 ــ « مجــاقــــر » (142)

قلت : فمجـــــاقــر ؟

قال : حصن جديــد ، وخير مديد ، وبحر ما على افادته مزيــد ، (**وخصب ثابت ويزيــد**) (143) . ساكنه قد قضى ــ الحج ــ أكثره ، وظهر (108 : أ) عين الخير فيه وأثره ، الا أنه لا تلفى ــ بــه للماء ــ بلالة ، ولا تستشف للجود علالة .

16 ــ « قنتــوريــة » (144)

قلت : فقنتوريـــــــة ؟

قال يسار يمينها ، وغبار كمينها ، ومعمول يمينها ، يجود بها الجبن والعسل ، ومن دونها الاسل (145) ، وأما عن الخبز فلا تسل . وان كانت أحسن شكلا ، فأقل شربا وأكلا ، وأجفا أهلا ، وأشد جهلا ، وأعدم علا

---

(140) زيادة فى « س » .

(141) هذا البيت ورد فى النسخ الاخرى ، واثبته « سيمونيت »
Simonet OP. Cit. P. 112

(142) مجاقر : هى بالاسبانية « Mojacar » احدى قرى الاندلس الصغيرة ، مــا زالت حتى اليوم ، وما زال نساؤها حتى الآن يرتدين الحجاب .

(143) زيادة فى « س ، ط » .

(144) قنتورية : هى « Cantoria » تقع جنوب « برشانة » على نهر المنصورة .

(145) كناية عن بخل اهلها ، بدليل ما ذكره بعدئذ .

ونهلا ، وأهلها شرار ، أضلعهم بالظماء (146) حرار . لا تلفى بهـا نغبة (147) ماء ، ولا تعدم (148) مشقة ظماء ، ولا تتوج أفقها الا فى الندرة قزعة سمـاء .

17 – « بـرشانـة » (149)

قلت : فبرشانـة ؟

قال : حصن مانع ، وجناب يانع ، أهلها أولو عداوة لاخلاق البداوة ، وعلى وجوههم نضرة وفى أيديهم نداوة ، يداوون بالسلافة (150) علل الجلافـة ، **(ويؤثرون علل التخلف على لذة الخلافة)** (151) ، فأصبح ربعهم ظرفا ، قد ملىء ظرفا ، فللمجون به بسوق ، وللفسوق ألف سوق ، تشمر به الاذيال عن سوق . وهى تبين بعض بيان عن أعيان ، وعلى وجوه نسوانها طلاقة ، وفى ألسنتهم ذلاقة ، ولهن بالسفارة (152) فى الفقـراء علاقة . (153) الا أن جفنها ليس بذى سور يقيه مما يتقيه ، ووغدها يتكلم بملىء فيه ، وحليمها يشقى بالسفيه ، ومحياها تكمن حية الجور فيه .

---

146) فى نسختى (س ، ر) « بالظما » وهكذا اوردها « سيمونيت » ، ولعل الصواب فى نسختنا .

147) النغبة : بالتشديد مع الفتح او الضم ، بمعنى الجرعة من الماء .

148) فى نسخة (س) « ولا يعدم » .

149) هى« Purchena وتقع على نهر المنصورة ، تتبع ولاية « المرية » ، ويوجـد مكان آخر بهذا الاسم بولاية « جيان » .
انظر « الروض المعطار » للحميرى ص 52 حاشية 1 .

150) السلافة : افضل انواع الخمر ، اذ هى السائل قبل العصير

151) هذه العبارة زائدة فى النسخ الاخرى ، والعلل هو الشرب للخمر المرة تلـو المرة ، فاهل المدينة يؤثرون ذلك على لذة الملك .

152) فى نسختى (س ، ر) « عن » ، وهو اصوب وانسب .

153) كناية عن اشتغال بعض نسائها بالقوادة .

18 ــ « أوريـــة » (153)

قلت : فأوريـــة ؟ (108 : ب) .

قال : بلد الجبن والعسل (154) ، والهواء الذى يذهب بالكسل ، وأما عن الماء البرود فلا تسل . ادامه الصيد الذى لا يتعذر ، وقوته الشعيـر الذى يبـذر . الا أنه بادى الوحشـة والانقطـاع ، والاجابـة لداعـى المخالفة (155) والاهطاع (156) . وحش الجناب (157) ، عرى من ثمرات النخيل والاعناب ، حقيق لمعرة العدو والاجتناب .

19 ــ « بليـش الشقـراء » (158)

قلت :فبليـــش ؟

قال : ثغر قصى ، وقياد (159) ــ على الامن ــ عصى ، ويتيم ليس عليه ــ غير العدو ــ وصى . ماؤه معين ، وحوره عين ، وخلوته ــ علـى النسك وسواه ــ تعين . وبه الحمام ، والنطف الجمام (160) ، ولاهله بالصيادة اهتمام ، وعسله ــ اذا اضطفت العسول ــ امـــام . الا أنها

---

153) هى المعروفة اليوم باسم « Oria » بولاية المرية .

154) فى النسخ الاخرى « بلدة » .

155) فى نسخة اخرى « المخالفة » .

156) الاهطاع : الاسراع فى خوف .

157) فى نسختى (س ، ر) « وحسن » هكذا اوردها « سيمونيت » ، وهو مـا يتناسب مع السياق العام للوصف .

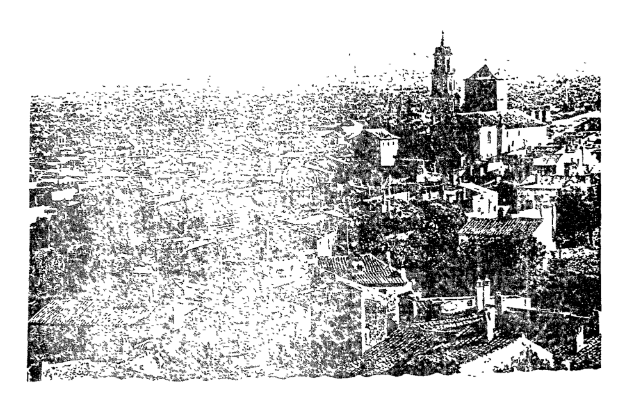
158) هى « Velez Rubio » تقـع قـرب مدينة « لورقـة » ، علاوة علـى « بليش البيضاء » Velez Blanco y en sun proximidales

كما توجد بليش أخرى تدعى « Velez Malaga » وهى قرب « مالقـة » .

159) فى النسخ الاخرى بحذف « وقياد » .

160) النطف الجمام : الماء الكثير .

بسطة غرناطة



منظر عام للمدينة

بلدة منقطعة بائنة ، وبأحواز العدو كائنة ، ولحدود لورقة (161) — فتحها الله — مشاهدة معاينة . وبرها الزهيد القليل يتحف به العليل ، وسبيل الامن اليها غير سبيل ، ومرعاها — لسوء الجوار — وبيل .

20 — « بسطـــــة » (162)

قلت : فمدينـــة بسطـــة ؟

قال : وما بسطة ! بلد خصيب ، ومدينة لها من اسمهـــا نصيب ، دوحها متهدل ، (163) وطيب هوائها غير متبدل ، وناهيك من بلد اختص أهله فى معالجة الزعفران ، وامتازوا به عن غيرهم من الجيران . عمت — أرضها — السقيا فلا تخلف ، وشملتها البركة يختص الله (164) 109 : أ) من يشاء ويزلف ، يتخلل — مدينتها — الجدول المتدافع ، والناقــع للغلل (165) النافع . ثياب أهلها بالعبير تتأرج ، وحورها تتجلى وتتبرج وولدانها — فى شط انهارها المتعددة — تتفرج . ولها الفحص الذى يسافر فيه الطرف سعيا ، ولا تعدم السائمة به ريا ولا رعيا ، ولله در القائل :

ألجانـــى الدهـــر الـــى عالـــــم يؤخذ منـــه العلم والدين (166)
فى بلـــدة عـــوذت نفســـى بهـــا اذ فى اسمهـــا طـــه وياســـــين

---

(161) لورقة : مدينة تبعد عن مرسية بنحو60كم على مرتفع جبلى، فهى قلعة مرسية فى الحروب الاسلامية النصرانية ، وقد سقطت لورقة هذه فى يد الاسبان عام 1248 م (645 هـ) .
راجع : الروض المعطار ص 171 .

(162) بسطة : تعرف الآن فى الاسبانية باسم « Baza » تقع شمال شرق غرناطـــة بنحو 25 كم .

(163) فى نسختى (س ، ر) « متدل » .

(164) فى نسختى (ط ، ر) « تختص » .

(165) فى نسخة (ط) « للعلل » .

(166) فى نسخة (ط) يتاخر البيت الاول عن الثانى ، وهو ما لا يتناسب والسيــاق العام ، وهكذا اوردها سيمونيت دون اشارة الى نسختنا .

الا أن ترتبها تفضح البناء ، وان صحبة الاعتناء ، فأسوارها تسجد عند الاقامة ، وخندقها — لاكسارها — تلقامة ، فهى — لذلك — غيــر دار (167) مقامة ، ورياحها عاصفة ، ورعودها قاصفة ، وحاميتها تنظر الى الهياج ، من خلف سياج ، فالعدو فيها شديد الفتكات ، معمل الحركات ، وساكنها دائم الشكات ، وحدها فليل ، وأعيانها قليل (168) ، وعزيزها — لتوقع المكروه — ذليــل .

21 — « أشكــــر » (169)

قلت : فاشكـــــر ؟

قال : نعم البسيط المديد ، والرزق الجديد ، والتقى (170) العديد ، والصيد والقديد (171) ، تركب الجداول فحصها ، ويأبى الكمال نقصها ، ويلازم ظل الخصب شخصها . مسرح البهائم ، ومعدن الرعى الدائم . الا أن معقلها لا يمنع ، ومكانها يحوم عليه (109 : ب) الحادث الاشنع ونفوس أهلها مستسلمة لما الله يصنع .

---

(167) فى نسخة (ط) « خير » ، وهو ما لا يتناسب والسياق العام لوصف طبيعــة البلد ، وقد أوردها سيمونيت كذلك مخالفة لنسختنا .

(168) هذه الجملة زائدة فى نسختنا ، دون النسخ الاخرى .

(169) اشكر : هى« Huescat تتبع ولاية غرناطة ، موقعها شمال بسطة ، ويشيــر « سيمونيت » عند ذكر هذه المدينة الى المنازعات التى كانت بين المسلميــن والنصارى أيام ابن الخطيب .
راجع : Simonet. OP. Cit. p. 63

(170) فى نسخة (ط) « والسعى » .

(171) فى نسختى (ر، س) « القديد » بدون الواو .

22 ــ « أنــــــدرش » (172)

قلــت : فــأنـــــدرش ؟

قال : عنصر جباية ، ووطن بهم (173) أولو اباية ، حريرها ذهب ، وتربها تبر منتهب (174) ، وماؤها سلسل ، وهواؤها لا يلفى معه كسل . الا أنها ضيقة الاحواز والجهات ، كثيرة المعابر والفوهات . أعرابها أولـــو استطالة ، وابناء مترفيها كثيرو البطالة ، فلا يعدم ذو الزرع عدوانا ، ولا يفقد عير الشر نزوانا ، وطريقها غير سوى ، وساكنها ضعيف يشكو من قـــــــوى .

23 ــ « شبــالــــش » (175)

قلت : فشبالـــــش ؟

قال : معدن حرير خلصت سبائكه ، وأثرى بزازه وحائكه ، وتهدلت حجاله وتمهدت آرائكه ، وجباية سهل اقتضاؤها ، وجمت بيضاؤها . الا

---

(172) اندرش : هى « Andorax » تتبع المرية ، مدينة صغيرة ، توجد الآن قــرب ولايتها ، واسمها يطلق على نهر هناك ينبع من جبل الثلج Sierra Nevada ويصب فى البحر الابيض المتوسط .

(173) فى نسخة (ر) « به » بدل « بهم » ، والبهم بضم ففتح ج بهمة ، وهو الشجاع، يقول البوصيرى :

طارت قلوب العدا من بأسهم فرقا فما تفرق بين البهم والبهـم

(174) فى نسختى (س ، ر) « ملتهب » هكذا أوردها « سيمونيت » ، ولعل الصواب فى نسختنا .

(175) فى نسخة (ط ، ر) « الفرج » ، هكذا أوردها سيمونيت ، وهو ما لايتناسب والسياق ، فلعل الصواب فى نسختنا .

(175) تسمى بالاسبانية« Jubles » موقعها بأطراف جبل الثلج « Sierra Nevada » وكانت عبارة عن حصن فى العصور الاسلامية ، وقد تحدث « سيمونيت » عن هذا الحصن واهميته فى الحروب الاهلية ، التى كانت تنشب فى غرناطة على مر عصورها الاسلامية المختلفة .

راجع فى هذا : « سيمونيت » ص 102 .

أنه وطن عدم ادامه ، وبيت ظهر اهتدامه ، وفقدت به حيل التعيـــش وأسبابه ، ومحل لا يقيم به الا أربابه .

24 — « وادى آش » (176)

قلت : فمدينـــة وادى آش ؟

قال : مدينة الوطن ، ومناخ من عبر أو قطن ، للناس ما بدا (177) ولله ما بطن . وضع سديد ، وبأس شديد ، ومعدن حديد ، ومحـــل عـــدة وعديد ، وبلد لا يعتل فيه الا النسيم ، ومرأى يخجل منه الصباح الوسيم . كثيرة الجداول والمذانب ، مخضرة الجوانب . الى (110 : أ) الفواكه الكثيرة ، والكروم الاثيرة ، والسقى الذى يسد الخلة ، ويضاعف الغلة . وسندها معدن الحديد والحرير ، ومعقلها أهل للتاج والسرير . وهـــى دار أحساب ، وارث واكتساب ، وأدب وحساب . وماؤها مجاج الجليد ، وهواؤها يذكى طبع البليد . الا أن ضعيفها يضيق عليه المعاش ، وناقهها يتعذر عليه الانتعاش ، وشيخها يسطو على عصبة الارتعاش (178) . فهى ذات برد ، وعكس وطرد ، ما شئت من لحى راعد ، ومقرور علـــى الجمر قاعد ، ونفس صاعد ، وفتنة يعد بها واعد ، وشرور تسل الخناجر ، وفاجر يسطو بفاجر ، وكلف بهاجر (179) ، واغتمام تبلغ به القلوب الحناجر ، وزمهرير تجمد له المياه فى ناجر شهر (180) . وعلى ذلك فدرتها

---

(176) وادى آش : هى« Guadix »تقع شمال شرق غرناطة ، على نهر « فردس » وتبعد عن غرناطة بنحو 55 كم .
راجع : الحميرى فى : « الروض المعطار » ص 192 — 193 نشر ليفـــى بروفنســـال

(177) فى نسخة (ط) « ما ظهر » .

(178) فى نسختى (ط ، س) « وشيخها يخطو على قصبة الارتعاش » .

(179) الهاجر : الفحش والبذىء من القول .

(180) شهر ناجر : كل شهر من شهور الصيف ، لان الابل تنجر فيه اى تعطش .

أسمح (181) للحالب ، ونشيدتها أقرب للطالب ، ومحاسنها أغلب والحكم للغـــالــــب .

25 ـ « فنيـــانـــة » (182)

قلـــت : ففنيـــانـــة ؟

قال : مدينة ، وللخير خدينة ، ما شئت من ظبى غرير ، وعضب طرير (183) ، وغلة وحرير ، وماء نمير ، ودوام للخزين (184) وتعمير . الا أن بردها كثير ، وودقها نثير ، ووشرارها لهم فى الخيار تأثير

26 ـ « مدينـــة غرناطـــة » (185)

قلت : فمدينـــة غرنـــاطـــة ؟

قال : حضرة سنية ، والشمس (بهـــا) عن مدح المادح غنيـــة ،

---

181) فى نسختى (س ، ر) « اسمع » وهكذا اوردها « سيمونيت » ، ولكنهـــا فى نسختنا اصوب

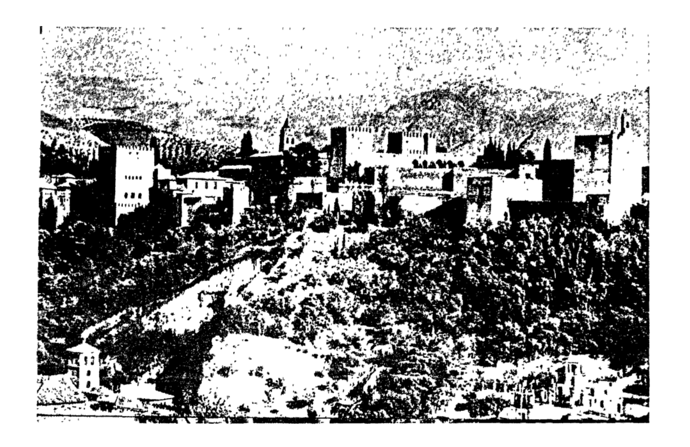
182) هى« Finana »تقع ضمن مقاطعة المرية على مسافة 30 كم . جنوب شرق وادى آش .
راجع : الحميرى فى « الروض المعطار » ، ص 172 حاشية 2

183) عضب طرير : سيف ذى حد مرهف .

184) فى نسختى (س ، ر) « للتخزين » .

185) هى Granada ومعناها « الرمانة » ، وهى شعارها التاريخى ، تقع فى واد عميق ، يمتد من المنحدر الشمالى الغربى لجبال « سييرانيفادا » ويحدها من الجنوب نهر شنيل فرع الوادى الكبير ، ويخترق فرعه « حدره » المدينة من الوسط ، والى يمينه يقع حى البيازين ، ومعظم المدينة الحديثة ، وتقع قصبة الحمراء فى الناحية الاخرى . وقد سقطت غرناطة بالتسليم فى يد الملكـــين الكاثوليكيين « فرناندو وايزابيلا » فى 2 يناير 1492 م (2 ربيع الاول 897 هـ). وهى خاتمة الفتوح التى توجت حروب الاسترداد la Reconquista لذلك تحظى

غرناطة



الحمراء وقلعتها

كبرت عـــن قيل وقـــال ، وجلت عـــن (110 : ب) وامـــق (186) وقال (187) ، وقيدت العقل بعقال ، وأمنت حال حسنها من انتقال . لو خيرت فى حسن الوضع لما زادت وصفا ، ولا أحكمت رصفا ، ولا أخرجت

غرناطة بمنزلة خاصة فى نفوس الاسبان ، وفى التاريخ الاسبانى كذلك ، فهى المرتد الابدى لفاتيحها الكاثوليكيين ، كما حباها ملوك اسبانيا بعنايتهم ، وفى مقدمتهم الامبراطور « شارلكان » الذى أسس جامعتها الشهيرة . وغرناطة اليوم ولاية ومدينة ، فكونها ولاية تشمل مساحة تدرها 5.000 ميل مربـــع يحدها البحر من الجنوب ، ومن الشمال ولايات قرطبة وجيان ، ومن المشرق ولايتا المرية ومرسية ، ومن الغرب ولاية مالقة ، وتخترقها وتظللها جبـــال الثلج « سييرانيفادا » ويرويها كل من نهر الوداى الكبير وفرعه نهر شنيل ، وجوها حار ، ولاسيما فى الوديان المنخفضة ، وباردة فى التلال ، وتربتهـــا خصبة جدا ، ولاسيما فى المغرب والجنوب ، ويبلغ سكان الولاية 1.500.000 نسمة تقريبا ، ويتبعها من المدن : وادى آش ، واشكر ، ومترايل ، والحامة ، وستاقى ، ولوشه ، وحصن اللوز ، ومونتى فريو ، واجيجر ، وبسطـــة ، والمنكب ، وارجبة ، وشلوبانية . وغرناطة العاصمة حاليا ثلاثة اقسام ، هى: انتكيرويلا ، وغرناطة ، والبيازين . وهى مدينة زراعية صناعية ، ويبلغ عدد سكانها اليوم حوالى 170.000 نسمة ، وتمتاز بكثرة منشآتها العلمية والفنية ، وقد تأسست جامعتها عام 1531 م فى عصر الامبراطور شارلكان ، وقـــد بارك المشروع « البابا كليمنت السابع » واصدر مرسوما بانشاء الجامعـــة التى تشتمل على كليات ، هى : الفلسفة والآداب ، والعلوم ، والحقوق ، والطب ، والصيدلة . ويلحق بكلية الآداب ــ معهدان هما : معهد تأريـــخ الملكين الكاثوليكيين ، وقد انشىء عام 1943 م ، والثانى مدرسة الابحاث العربية بغرناطة ، والتى تعمل بالتعاون مع مدرسة « بيجيـــل آسنـــــن » للدراسات العربية بمدريد ، ويصدران معا « مجلة الاندلس » ، وبغرناطة عدة متاحف ، منها متحف الحمراء ، والمتحف الاثرى ، ومتحف البلدية . أما المعالم والآثار الاندلسية الباقية فهى : الحمراء ، وحى البيازين ، وميـــدان باب الرملة ، والقيسرية ، والمدرسة ، والخان ، والابواب والاســـوار ، وقصر شنيل .

راجع : رحلة ابن بطوطة لهذه المدينة ، ج 2 ص 1187 ، 68 ــ 27 ، وكذا : Simonet, OP. Cit.

(186) الوامق : المحب .

(187) القال : الكاره .



فنـــاء الاسود (قصر الحمراء)

أرضها ريحانا ولا عصفا (188) ، ولا أخذت بأشتات المذاهب ، وأصناف المواهب جدا و (لا) قصفا . كرسيها ظاهر الاشراف، مطل على الاطراف، وديوانها مكتوب بآيات الانفال والاعراف ، وهواؤها صاف ، وللانفاس مصاف . حجبت ــ الجنوب عنها ــ الجبال ، فأمن (189) الوباء والوبال ، وأصبح ساكنها غير مبال، وفى جنه من النبال، وانفسحت للشمال (190) ، واستوفت الشروط على الكمال ، وانحدر منها مجاج الجليد على الرمال . وانبسط ــ بين يديها ــ المرج الذى نضرة النعيم لا تفارقه ، ومدارى النسيم تنفلى بها مفارقه . ريع من واديه بثعبان مبين ، ان لدغ تلول شطه تلها للجبين ، وولدت حيات المذانب عن الشمال واليمين (191) ، وقلد منها اللبات سلوكا تاتى (192) من الحصباء بكل در ثمين ، وترك الارض مخضرة ، تغير من خضراء السماء ضرة ، والازهار مفترة ، والحياة الدنيا ــ بزخرفها ــ مغتــــرة

أى واد أفـــاض مـــن عــرفـات
فـــوق حمـــرائهـــا أتـــم أفاضـــة

(111 : أ) ثم لما استقـــر بالسهل يجرى
شـــق منهـــا بحلـــة فضفـاضـــة

كلمـــا انســـاب كـان عضبـــا صقـــلا
واذا مـــا استـــدار كـــان مفاضـــة (193)

188) العصف : ورق الزرع .
189) فى نسخة (س) « فامنت » .
190) الشمال : رياح الشمال .
191) فى نسخة (س) « وولد حيات المذانب تاتى من الشمال واليمين » .
192) فى نسختى (ر ، س) « تاثر » ، وهكذا أوردها سيمونيت ، والصـــواب فى نسختنا .
193) مفاضـــة : درع .



قصر جنة العريف من الخارج
(الحمراء)

فتعددت القرى والجنات ، وحفت ــ بالامهات منها ــ البنــات ، ورف النبات ، وتدبجت الجنبات ، وتقلدت اللبات ، وطابت بالنواسم المهبات ، ودارت بالاسوار دور السوار المنى والمستخلصات ، ونصبت ــ لعرائس الروض ــ المنصات ، وقعد سلطان الربيع لعرض القصات ، وخطب بلبل الدوح فوجب الانصات ، وتموجت الاعناب ، واستبحر ــ بكل عذب الجنا ــ منها الجناب ، وزينت السماء الدنيا من الابراج العديدة بأبراج ، ذات دقائق وأدراج ، وتنفست الرياح عن أراج ، أذكرت الجنة كل امل ما عند الله وراج .

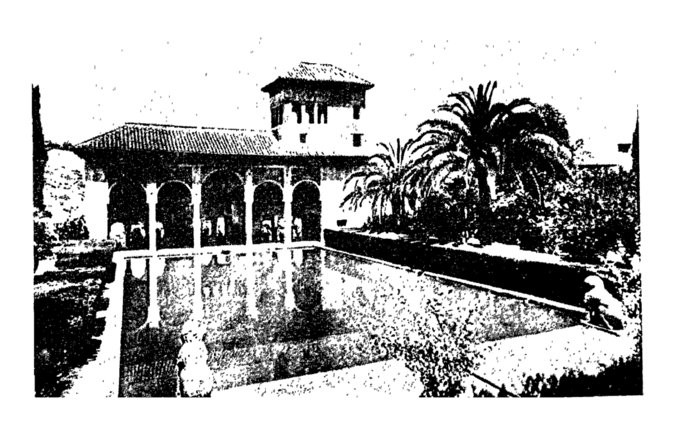
وتبرجــــت بحمرائهـــا القصـــور مبتسمـــة عن بيـــض الشرفات ، سافرة عن صفحات القبات المزخرفات ، تقذف ــ بالانهار من بعــد المرتقى ــ فيوض بحورهــا الزرق ، وتناغى ــ أذكار المــآذن بأسمارها ــ نغمات الورق . وكم أطلعت من أقمار وأهلة ، وربت مــن ملوك جلة ، الى بحر التمدن (194) المحيط الاستدارة ، الصادر عن الاحكام والادارة ، ذى المحاسن غير المعارة ، المعجزة لسان (111 : ب) الكناية والاستعارة ، حيث المساجد العتيقة القديمة ، والميازب الحافظة للرى المديمة ، والجسور العريضة ، والعوائد المقدرة **(تقدير الفريضــة ، والاسواق المرقومة الاطواق)** (195) بنفائس الاذواق ، والوجوه الزهر ، والبشرات الرقاق ، والزى الذى فاق زى الآفاق ، وملأ قلوب المؤمنين بالاشفـــــاق :

بلــد جللهـــا اللــــه حسنـــا وسنـــى
وأجــر السعــد من حــل لديها رسنـــا

---

(194) وردت هذه العبارة فى نسختى (ط ، ر) هكذا : « الى التمديــن المحيــط الاستدارة » كما اوردها بهذا سيمونيت ، ولعلها فى نسختنا اوفى

(195) هذه الزيادة بين القوسين وجدتها فى نسختنا فقط .



بركة البرطل
(الحمراء)

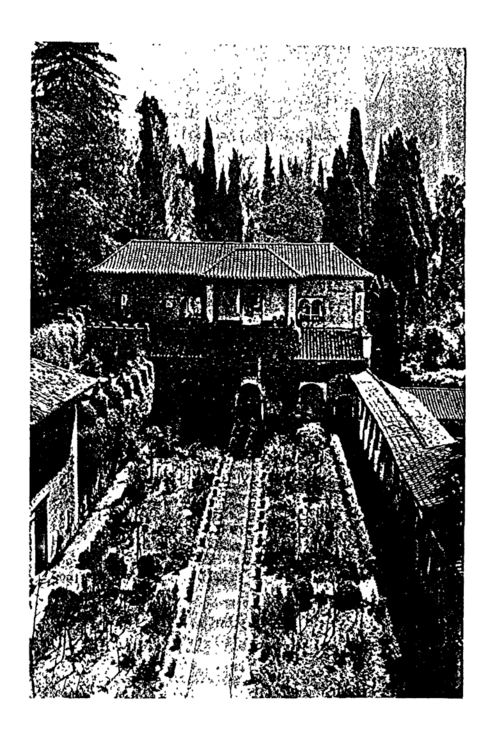
قـد أجنت سكرا جمـا ورزقا حسنـا
أعجزتعن (196) منتهىالفخر البعيد السنا(197)

يروقك فى أطرافها حسن الصور وجمالها ، وظرف (198) الصنائع وكمالها ، والفعلـة وأعمالهـا ، حتى الاطـلال وانهما لها ، والسـؤال وأسمالهـا (199) :

كـل عليه مـن المحاسن لمحـة   فى كـل طـور للوجود تطـورا
كالروض يعجب فى ابتداء نباتـه   واذا استجم به النبات ونـورا
واذا الجمال المطلق استشهدتـه   ألغيت مـا انتحل الخيـال وزورا

(112 : أ) ثم قال : أى أمن (200) عرى من مخافة ، وأى حصافـة لا تقابلها سخافة ، ولكل شىء آفة . لكنها ــ والله ــ بردها يطفىء حر الحياة ، ويمنع الشفاه عـن رد التحيات ، وأسعارها يشعر معيارهـا بالترهات (201) ، وعدوها يعاطى كئوس الحرب فهاك (202) وهات .
الى السكك التى بان خمولها ، ولم يقبل الموضوع محمولها ، والكرب الذى يجده الانسان فيها ، صادف اضافة أو ترفيها ، والمكوس التى تطرد البركة وتنفيها . الى سوء الجوار ، وجفاء الزوار ، ونزالة الديار ، وغلاء الخشب والجيار ، وكساد المعايش عند الاضطرار ، واهانة المقابر وهى دار

(196) فى نسخة (ر ، ى) « من » .
(197) فى نسخة (ط) « السعيد لسنا » ، ولكن هذا الشطر الاخير يناسبه ما ورد فى نسختنا ، حيث يستقيم به المعنى .
(198) فى نسخة اخرى « وطرفة » .
(199) السؤال : ج سائل . والاسمال : البالى من الثياب ، وهى مبالغة تكاد تكون غير معقولة .
(200) فى نسخة (س) « آمن » .
(201) الترهات : ج ترهة ، وهى الاباطيل .
(202) فى نسخة (ط) « بهاك » .



جنة العريف
(الحمراء)

القرار ، وقصر الاعمار ، واستحلال الغيبة فى الاسمار ، واحتقار أولـــى الفضل والوقار ، والتنافس فى العقار ، والشح فى الدرهم والدينار ، باليم والنـــــــار (203) .

ثم قال : اللهم غفرا ، وان لم نقل كفرا ، « ان الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء (204) » . ولله در أبى العتاهية (205) حين يقـــــول :

أصبحت الدنيـا ــ لنـا فتنـة والحمـد للـه علـى ذالكـــا
اجتمـع النـاس علـى ذمهـــا وما نرى ــ منهم لهـا ــ تاركـا

---

203) فى نسختى (س ، ر) « واليم » وهكذا اوردها « سيمونيت » ، ولعل الصواب فى نسختنا .

204) آية : 48 من سورة النساء .

205) أبو العتاهية : هو اسماعيل بن القاسم ، شاعر الزهد العربى فى القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) ، من بلدة عين التمر بالانبار غرب الكوفة . وقد وقد ولد حوالى عام 130 هـ (747 م) ، ومات حوالى عام . 210 هـ (825 م) درس اللغة العربية والادب ، ثم اتصل بالمهدى والهادى والرشيد والمامون، اشتهر شعره بالزهد فى أواخر حياته ، وخاصة عندما بلغ الخمسين ، وكان للرشيد جارية تسمى « عتبة » عشقها أبو العتاهية فى شبابه ، وتصبب بها كثيرا ، وخاصة فى بدء قصائده التى مدح بها الرشيد ، وكان حائرا بين مذاهب الشعر التى عاصرها ، ولكنه استقر اخيرا على شعر الزهد فأجاده .
راجع : مجلة الرسالة المصرية ــ العدد 3 عـــام 1953 م « شاعرنـــــا العالمى أبو العتاهية » ــ لعبد المتعال الصعيدى .
ثم « أبو العتاهية » لمحمد أحمد برانق ــ القاهرة 1947 م .

27 ـ « الحمـــــة » (206)

قلت : فالحمـــــة ؟

قال : أجل ، الصيد (207) والحجل ، والصحة (208) وان كـــان المعتبر (112 : ب) الاجل ، وتورد الخدود وان لم يطرقها الخجـل . والحصانة عند الهرب من الرهب ، والبر كأنه قطع الذهب . والحمة التى حوضها يفهق (209) بالنعيم ، مبذولة للخامل والزعيم ، تمت ثنيتها بالنسب الى ثنية النعيم . قد ملأها الله اعتدالا ، فلا تجد الخلق اعتياضا عنها ولا استبدالا ، وأنبط صخرتها الصماء عذبا زلالا ، قد اعتزل الكدر اعتزالا . لكــن مزارعها لا ترويهــا الجداول ، ولا ينجدها الا الجــود المزاول (210) ، فان أخصب العام أعيا (211) الطعام ، وان أخلــف الانعام ، هلكت الناس بها والانعام . والفواكه يطرف بها الجلب ، وتزر عليها العلب ، وعصيرها لا يليق بالأكل ولا يصلح للحلب ، وبردها شديد وان لم يقض بـــه المنقلـــب .

---

(206) الحمة : هى Alhama بلدة صغيرة تقع قرب مدينة بجانة من أعمال المرية ، وقد اطلق عليها العرب هذا الاسم نسبة الى العين الحارة الموجودة بها ، والتى هى مقصد كثير من ذوى العلل والاسقام .
كما يقصد السياح اليوم هذه المدينة للاستشفاء بعينها ، وما تزال بهـــا الحمامات العربية والعين حتى الآن .
راجع : الحميرى فى « الروض المعطار » ص 39 ، وابن بطوطة فى رحلتـــه ج 2 ص 187 .

(207) فى نسخة اخرى « الصحة » .

(208) فى نسخة (س) « والصيد » ، وهو ما لا يتناسب والسياق بعد .

(209) يفهـــق : يعمـــر .

(210) الجود المزاول : المطر الغزير المعالج .

(211) يحتمل معنى (اعيا الطعام) اعجز الناس عن حمله لكثرته ووفرته متى اخصب العـــام .

28 ـ « صالحـــة » (212)

قلت : فصـالحـــة ؟

قال : لولا أنها مناخ لم تذكر ، فليس مما يذم ولا مما يشكر ، وان كان ماؤها فضيا ، ووجه جوها وضيا ، وعصيرها مرضيا ، ورزقهـا أرضيا ، وفضلها ذاتيا لا عرضيا . فهى مهب نسف ، ودار خسف ، وأهلها بهم ، ليس ـ لأحد منهم ـ فهـم .

29 ـ « آليـرة ومنتفـريـد » (213)

قلت : فأليرة ومنتفريـد ؟

قال : بلد ارتفاق (214) ، باجماع واتفاق ، معدن البر الذكى ، والصيد الزكى ، وهد شاهق ، ومصرخ ناهق ، ومعدن بر فائق ، ان لـم يعق ـ من عدو القلعة ـ (113 : أ) عائق .

30 ـ « لـوشـــة » (215)

قلت : فلـوشـــة ؟

قال مرأى بهيج ، ومنظر يروق ويهيج ، ونهر سيال ، وغصن مياد ، وجنات وعيون ، ولذات لا تمطل بها ديون ، وجداول تنضح بها الجوانح ،

---

(212) صالحة : مدينة زالت معالمها منذ اواسط القرن السادس عشر الميلادى ، يطلق عليها الكتاب الاسبان اسم Zalea موقعها قديما كان قرب الحمة .

(213) اليرة Illora ومنتفريد Montefrio تقع المدينتان شمال مدينـــة لوشـــة . Loja.

(214) ارتفاق : استقرار واعتماد .

(215) راجع ما كتباه عن هذه المدينة باول الكتاب ، عند التعريف بالمؤلف ، فهـى مسقط راسه .

ومحاسن يشغل بها عن وكره السائح ، ونعم يذكر ــ بهــا ــ المانع المانح . ما شئت من رحا يدور ، ونطف تشفى ــ بهــا ــ الصدور ، وصيد ووقود ، وأعناب كما زانت اللبات عقود ، وأرانب تحسبهم أيقاظا وهم رقود (217) . الى معدن الملح ، ومعصر الزيت ، والخضر المتكفلــة بخصب البيت ، والمرافق التى لا تحصر الا بعد الكيت . والخارج الذى عضد مسحة الملاحة ، بجدوى الفلاحة . الا أن داخلها حرج الأزقة ، وأحوال أهلها مائلة الى الرقة ، وأزقتها قذرة ، وأسباب التطوف (218) بها متعذرة ، ومنازلها ــ لنزائل الجند ــ نازلة ، وعيون العدو ــ لثغرها الشنيــب (219) ــ مغازلــــة .

31 ــ « أرجــذونـــــة » (220)

قلت : فأرجــذونـــــة ؟

قال : شر دار وطلل لم يبق منه غير جدار ، ومصام يرجع البصــر عنه وهو حاسر (221) ، وعورة ساكنها ــ لعدم الماء ــ مستاثرة (222). وقومها ذو بطر وأشر ، وشيوخها ــ تيوس فى مسالخ بشر ، طعام مــن

216) اقتباسا من قوله تعالى : « وتحسبهم ايقاظا وهم رقود ، ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ، وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد ، لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا » الكهف : 18 .

217) فى نسخة (ط ، س) « ومعاصر » .

218) فى نسخة (ط) « التصرف » .

219) الثغر الشنيب : ما كان ابيض الاسنان حسنها ، ويقصد صفحة المدينـــة الجميلة .

220) ارجذونة : هى حاليا Archidona بلدة متوسطة تتبع ولاية مالقة التى لا تبعد منها كثيرا .

221) اقتباسا من قوله تعالى : « ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئـــا وهو حسير » الملك : 4 .

222) مستاســر : قابــض .

يقوت منهم أو يعول ، التيوس والوعول ، وحرثها مغل ، (113 : ب) وخلقهـا حسـد وغـل .

32 ـ « أنتقيـــرة » (223)

قلت : فأنتقيـــرة ؟

قال : محل الحرث والانعام ، ومبذر الطعام ، والمرآة التى يتجلى بها وجه العام ، الرحب والسهل ، والنبات والطفل ، والهشيم والكهل ، والوطن والاهل . ساحت الجداول فى فحصها الافيح وسالت ، وانسابت حيات المذانب (224) فى سقيها الرحب الجوانب وانسالت . لا تشكو مـن نبـو ساحة ، ولا تسفر الا عن ملاحة ، ولا تضاهى فى جدوى فلاحة ، وعظـم ملاحة . الا أنها جرداء الخارج ، بل مارد ومارج (225) . وشدة فرجها فارج . لا تضبطها المسلحة للاتساع ، والدرع الوساع ، قليلة الفواكه ، عديمة الملاطف والمفاكه . أهلها أولو شرور وغرور ، وسلاح مشهور ، وقاهر ومقهـور ، لا تقبل غريبا ، ولا تعدم (226) من العدو تثريبا .

---

223) انتقيرة : هى حاليا Antequera احدى مدن الاندلس القديمة ، تبعد عن مالقة بحوالى 60 كم ، وهى عبارة عن حصون بين مالقة وغرناطة . ينسب اليها : الحكيم ابو بكر يحيى بن محمد بن يحيى الانصارى الانتقيرى .
راجع : معجم البلدان ــ للحموى ــ ج 3 ص 259 .

224) المذانب : ج مذنب بوزن منبر ، وهو جدول الماء ذو المسيل الضيق .

225) المارد : العاتى القاسى ، والمارج : الشعلة ذات اللهب الشديد .

226) فى نسخة (س) « عن » بدل « من » .

33 — « ذكـــــوان » (227)

قلت : فذكـــــوان ؟

قال : روض وغدير ، وفواكه جلت عن التقدير ، وخورنق وسدير (228) ، ومائدة لا تفوتها فائدة . دارت على الطحن أحجارها ، والتفت أشجارها ، وطاب هواؤها ، وخفق بالمحاسن لواؤها . الا أنها ضالـــة ساقطة ، وحبة ترتقب لاقطة ، لا تدفع عن قرطها وسوارها بأسوارها ، ولا تمنع نزع صدارها بجدارها ، وقضت بغلة (114 : أ) أعيانهـا حداثة بنيـانهـا .

34 — « قــرطمـــة » (229)

قلت : فقرطمـــة ؟

قال : الكرك (230) ، الذى يؤمن عليه الدرك (231) ، وان عظـم المعترك . جوها صاف ، فى مشتى ومصطاف ، وتربها للبر مصاف، وعصيرها

---

227) ذكوان : عبارة عن حصن يسمى « Coin » موقعه غرب مالقـة ، يرجـع تأسيسه الى أيام عبد الرحمن الثالث الاموى ، اعظم واشهر ملوك بنى امية (300 — 350 هـ = 912 — 961 م) ، ويروى ابن عذارى أن السبـب فى اقامته هو مواجهة حصون عمر بن حفصون وأولاده ، الذين أعلنوا عصيانهم لحكومة قرطبة .

راجع : ابن عذارى فى « البيان المغرب » ج 2 ص 189 وكذا :
Simonet Op. cit. p. 81

229) الخورنق والسدير : قصران ينسبان فى التاريخ للنعمان بن المنذر ملـك الحيرة ، وتنسج حولهما طرائف .

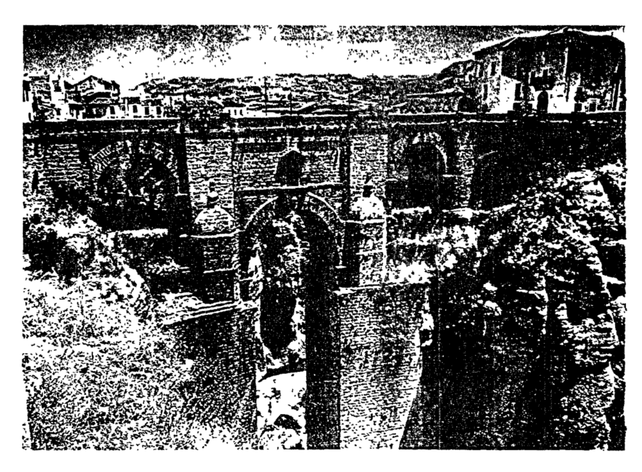
راجع : الحموى فى معجم البلدان ج 3 ص 54 ، والاغانى للاصفهانـى ج 2 ص 144 .

229) قرطمـة : هى بالاسبانيـة ، Cartama ، احدى مدن الاندلس الصغيرة .

230) الكرك : نوع من الطير .

231) الدرك : الحراسة .

رنــــدة



القنــطـرة العربيــة

بالكثرة ذو اتصاف . الا أن الماء بمعقلها مخزون ، وعتاد موزون ، وأهلها في الشدائد لا يجزون ، أيديهم ـ بالبخل ـ مغلولة ، وسيوف تشاجرهم مسلـــولـــة .

35 ـ « رنـــــــدة » (232)

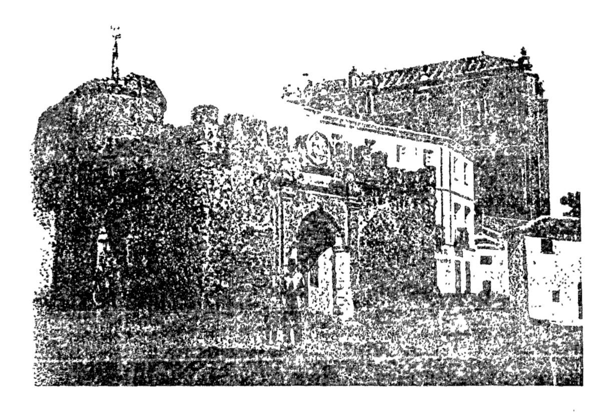
قلت : فــرنـــــدة ؟

قال : أم جهات وحصون ، وشجرة ذات غصون ، وجناب خصيب ، وحمى مصون . بلد زرع وضرع ، وأصل وفرع ، مخازنها بالبر مالية ،

(232) رندة : هي « Ronda »تقع غرب مالقة ، وقد كانت من أهم القواعد الاندلسية، كما كانت من أهم مدن غرناطة ، وتعتبر الحصن الذى يحمى مالقة من ناحية الغرب ، ولذلك لما سقطت رندة في يد الاسبان في ابريل 1485 (جمادى الاولى 890 هـ) ، اضحى الطريق سهلا لاستيلاء القشتاليين على مالقة ، فقد سقطت بعد قليل في ايديهم في اغسطس 1487 م (شعبان 892 هـ) . وهي تشـــرف على منطقة عالية من الربى ، ويشقها من وسطها وادى ليبين Guadalebin وقد وصف ابن بطوطة مدينة رندة حينما زار الاندلس عام 1350 م بقولــه : « وهي من امنع معاقل المسلمين واجملها وصفا » ، ويبلغ سكان رنـــــدة حاليا اكثر من 35.000 نسمة ، فهي مدينة متوسطة الحجم ، ويغلب عليها طابع القدم والبساطة ، وعليها المسحة الاندلسية . هذا ، واهم المعالـــم والآثار الاندلسية الباقية بها اطلال القصبة الشهيرة ، والقنطرة العربية عند مدخل المدينة الغربي ، وهي ذات عقد واحد بالغ الارتفاع ، ثم الحمامـــات العربية ، وهي اطلال دارسة من حمامات اندلسية قديمة ، على مقربة من الكنيسة العظمى ، وكذلك من الآثار « المنارة » في نهاية المدينة ، ويبلـــغ طولها حوالى 12 مترا ، والظاهر انها من ايام الموحدين لشبهها بمآذنهم ، ثم قصر الامير ابى مالك ، ويعرف في رندة باسم« Casa del Gigante » وهو اسم الاسرة التى تملكه ، ويقع القصر في طرف المدينة الجنوبى ، وكذلك باب المقابر Puerta de Almocabar ويقع في حى فرانسسكو . وينسب الى هذه المدينة الفقيه ابن عباد الرندى .

راجع ما كتبه ليفى بروفنسال عن هذه المدينة الاسلامية في Enc. ISI. III, P. 1254 ومجلة الاندلس Al-Andalus (1944) 472.

رنـــــــــدة



بـــاب المـــقــابــر

وأقواتها جديدة وبالية ، ونعمها — بجوار الجبل — متوالية . وهى بلد أعيان وصدور (233) ، وشموس وبدور ، ودور أى ودور ، وماء واديها يتوصل اليه فى جدور ، محكم مقدور . وفى أهلها غضاضة (234) وغضاضة (235) ، ما فى الكلف بها غضاضة (236) ، يلبس نساؤها الموق (237) ، على الاملد المرموق ، ويسفرن عن الخد المعشوق ، وينعشن قلب المشوق ، بالطيب المنشوق . الا أن العدو طوى ذيل بردها ، وغضب بنيانها ، وكيف السبيل الى ردها ، وأضاق خارجها ، وخفض معارجها ، وأعلى طائرها ودارجها (238) .

فلما بلغ هذا الحد قال : هل اكتفيت ؟ فقد شرحت صدرك (114 : ب) وشفيت ، وبما طلبت منى قد وفيت . يا بنى كأنى بالصباح السافر ، وأدهم الظلام النافر ، قد أجفل أمام مقتنبه (239) الوافر ، وترك من الهلال نعل الحافر . ونفسى مطيتى ، وقد بلغت الليلة طيتى (240) ، وأجزلت عطيتى ، فلنجم بالحمض (241) ، ونلم بالغمض ، وأنا بعد

(233) فى نسخة (ط) « وجدور » ولعل الصواب فى نسختنا .

(234) غضاضة : سعة الصدر .

(235) غضاضة : حلم .

(236) غضاضة : حط من القدر . وفى (س) ما فى الكلف بها « حضاضة » ، اى : ما فى الكلف بها شىء .

(237) الموق : خف غليظ تلبسه النساء فوق خف ارق منه .

(238) كناية عن ان العدو بغاراته يثير طيورها فتعلو فى الجو ، وفى الوقت نفسه يثير غبار طرقها .

(239) المقتنب : الوعاء للصائد يجعل فيه ما يصيده .

(240) طيتى : حاجتى .

(241) فلنجم بالحمض: الحمض هو الفاكهة، والابل لها طعامها ولها حمضها، ويقصد بالتعبير : المذاكرة .

نزيلك ، ان سرنى جزيلك ، وعديلك ان ضحك الى منديلك ، وسميرك ان روانى نميرك . فبادرت البــدرة ففضضتها ، والصــرة فافتضضتها ، والعيبة (242) فنفضتها ، والمعادن فأفضتها . فقال : بوركت من مواس، وآنشد قول أبى نــــواس (243) :

مــا من يــد فى الناس واحــدة كيد أبو العباس (244) أولاهــا
نــام الثقــات على مضاجعهــم وســرى الــى نفســى فأحياهــا

ثم قال : نم فى أمان ، من خطوب الزمان ، وقم فى ضمان ، مــن وقاية الرحمن . فلعمرى وما عمرى على بهين ، ولا الحلف على بمتمين ، لو كان الجود ثمرا لكنت لبابه ، أو عمرا لكنت شبابه ، أو منزلا لكنت بابـــــه .

فما هو الا أن كحلت جفنى بميل الرقاد ، وقدت طرفه سلس المقاد، وقام قيم الخان الى عادة الافتقاد ، وبادر سراجه بالايقاد ، ونظرت

---

242) العيبــة : الزنبيــل .

243) ابو نواس : هو الشاعر ابو الحسن بن هانىء الفارسى الاصل ، المولود عام 140 هـ (747 م) عاصر هارون الرشيد الخليفة العباسى ثم ابنه الامــين ، فكان شاعرهما . اشتهر بمجونه وتهتكه ، وكثيرا ما حبساه لظهور ذلــك فى شعره ، توفى بعد مقتل الامين عام 199 هـ (813 م) ببغداد . ويعتبر أبــو نواس ممثل المدرسة الشعرية الحديثة ، وقد ظهر تجديده فى خمرياتــــه وغزله بالمذكر . فهو فى هذين المجالين خصب الفكرة ، واسع الخبــــرة ، بحيث يستطيع ان يتغنى بمحاسنهما فى صور متجددة .
راجع : ديوان ابى نواس « المقدمة » ج 1 ص 248 ، نشر وتحقيق ايفالــد فاغر (القاهرة عام 1958 م) .

244) يعنى بابى العباس الوزير « الفضل بن الربيع » المكنى بابى العباس . وابو نواس بهذين البيتين يمدح أبا العباس هذا ، بعد ان تم اطلاقه من السجن على يده . وقوله « وسرى الى نفسى .. » يعنى : سرى المدوح الى نفســه فأحياها ، بعد أن انقذه من السجن .

(115 : أ) الى مضجع الشيخ ليس فيه الا زئبر أطماره (245) ، وروث حماره ، فخرجت لايثاره ، مقتفيا لآثاره ، فكأن الفلك لفه فى مداره ، أو خسفت الارض به وبداره (246) ، وسرت وفى قلبى — لبينه وذهاب أثره وعينه — حرقة ، وقلت متأسيا : لكل اجتماع من خليلين فرقة .

*

245) زئبر اطماره : اثر ثيابه البالية .
246) اقتباسا من قوله تعالى : « فخسفنا به وبداره الارض ، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله ، وما كان من المنتصرين » سورة القصص ، آية: 81.

الفَصْل الخامِس

المجلسُ الثاني

(116 : أ) المجلس الثاني

قال المخبر : فلما اندمل جرح الفراق بعد طول ، وزمان مطول (1) ومحا ـ رسم التذكر ـ تكرار فصول ، ونصول خضاب (2) ، وخضاب نصول (3) ، بينا أنا ذات يوم فى بعض أسواق الغبار ، أسرح طرف الاعتبار ، فى أمم تنسل من كل حدب ، وتنتدب من كل منتدى ومنتدب ، ما بين مشتمل للصماء يلويها ، ولائث للعمامة لا يسويها ، ومتلفظ بالشهادة وهو لا ينويها ، وصاعد من غور ، ومتظلم من جور ، وممسك بذنب عير أو روق (4) ثوّر ، يموجون ، ومن الاجداث يخرجون ، كأنهم النمل نشرها وقد برزت للشمس ، من مطر الامس ، يشيرون (116 : ب) بأجنحة الاكسية ، ويتساقطون على ثماد القلب (5) وأسئار الاحسية (6) ، وقد اصطف ذابحو الجزور ، وبائعو اللبوب (7) والبذور (8) ولصق بالامليـاء (9) حللة العقد وشهدة الزور ، ونظرت فى ذلك المجتمع الهائل المرأى والمسمع .

الى درسة غى ، وطهاة كى ، ورقاة جنون ، بضروب من القول وفنون ، وفيهم كهل قد استظل بقيطون (10) ، وسل سيف

---

1) فى نسخة (ط) « ممطول » .
2) نصول خضاب : ذهاب الحناء .
3) خضاب نصول : حناء مزالة .
4) روق ثور : قرن ثور .
5) ثماد القلب : حفر الآبار .
6) اسئار الاحسية : بقايا الماء فى المستنقعات .
7) اللبوب : الجوز واللوز .
8) البزور والابزار : التوابل
9) الامليا : ج ملى ، كغنى وزنا ومعنى .
10) قيطون : يطلقها اهل المغرب على الخيمة ، والجمع : قياطين .

لاطون (11) ، وتحدى برقية لديغ ومداواة مبطون ، قد اشتمل بسمل غفاره وبين يديه غبار فى جلد فاره ، وطحن من اطعام كفارة (12) . وأمامه تلميذ قد شمر الاكمام ، والتفت الخلف والامام ، وصرف لوحى لحظه ــ الاهتمام . وهو يأسو ويجرح ، ويتكلم بلسان القوم ثم يشرح ، ويقيد من حضره بقيد العزيمة فلا يبرح . ويقول :

أيها البهم السارح ، والحزب المسرور بما لديه الفارح ، والسرب الذى تقتاته لولاة البغى الجوارح (13) . صرفتم غروب اعتنائكم ، لمآرب نسائكم وأبنائكم ، وذهلتم عمن حل بفنائكم ، وجعلتم تطعمون وتجمعون ، « انما يستجيب الذين يسمعون » (14) . من وقعت على منكم عينه ، فقد رأى فاتح أقفال الاسرار ، ومثبت (117 : أ) الفرار ، ومصمت أولئك الصرار ، ومغور مياه الآبار بيسير الغبار ، ومخرج الاضمار فى المضمار ، ومذهب المس وطارد العمار (15) .

أنا قاطع الدماء اذا نزفت ، وكاشف الغماء اذا ما انكشفت ، أهنا (16) الابل فلا تجرب ، وأخط حول الحمى فلا تدنو السباع ولا تقرب ، وأدخن بها فلا تتسلل الحية ولا تدب العقرب ، ان نعيت الشمس ــ لوقت محدود ــ طمس فيها نورها (17) ، وان وعدت الارض برى

---

11) يرجح أستاذنا عبد الله كنون انها ربما تكون مشتقة من الكلمة الاسبانية لاطون « Laton » بمعنى النحاس ، فقد استعملها المقرى فى كتابه « نفح الطيب » بهذا المعنى .

12) ولاة البغى : يقصد بهم شرطة المكوس .

13) كان العامة يعتقدون نوعا من الشفاء فى مثل هذه الامور .

14) اقتباسا من قوله تعالى : « انما يستجيب الذين يسمعون ، والموتى يبعثهم الله ، ثم اليه يرجعون » سورة الانعام ، آية : 36 .

15) العمار : الجن يسكنون البيوت .

16) أهنا الابل : اطلى الابل بالقطران .

17) كناية عن تنبؤه بأحوال الطقس .

محمود فار تنورها (18) ، وان كتبت لعقد النكاح انحلت ، وان عقلت خطى الضالة وقفت حيث حلت ، وان زجرت الجنون تركت وخلت ، وان استثرت الدفائن ألقت الارض ما فيها وتخلت (19) . أنا جردت البيضة الشقراء ، وزوجت الفتى الشرقى من الجارية العذراء . أنا صافحت الملك، ورصدت الفلك ، ومزجت ــ بسر الحكمة ــ الضياء والحلك ، فاحتقرت الملـك وما ملـك .

دعوت علم الطباع فأطاع ، وقطعت شكوك الهيئة بالشكل القطاع ، وقلت بالقدر وبالاستطاع ، وسبقت فى صناعة البرهان (20) يوم الرهان . ورضت صعاب الرياضيات حتى ذل قيادها ، وسهل انقيادها ، وعدلت الكواكب (117 : ب) واختبرت القلوب اليابانية والمناكب ، وبشرت عند رجوع خنسها (21) بالغيوث السواكب ، ووقفت بالامتحان ، على صناعة الالحان ، وقرأت ما بعد علم الطبيعة ، وناظرت قسيس البيعة (22) ، وأعملت فى الاصول مرهفة النصول ، وأحكمت أمزجة الطباع وطبائع الفصول . وامتزت بالبروع فى علم الفروع ، وقمت فى العهد الحديث بالحديث، وحزت فى علم اللسان درجة الاحسان . وحققت قسمة الفروض،

---

(18) فـار تنورها : فاضت مياهها .

(19) اقتباسا من قوله تعالى : « واذا الارض مدت ، والقت ما فيها وتخلت » سورة الانشقاق ، آية 3 ، 4 .

(20) يقصد علم المنطق والمناظرة فى البحث العلمى .

(21) خنسها : الخنس ، قيل : الكواكب كلها ، وقيل : السيارات منها فقط ، وقيل : الخنس ، هى زحل والمشترى والمريخ والزهرة وعطارد . وقد اقسم اللـه تعالى بها فى قوله : « فلا اقسم بالخنس ، الجوار الكنس ... انه لقول رسول كريم » آية 15 ــ 19 من سورة التكوير .

(22) قسيس البيعة : يرمى بهذا الى ما كان يحدث احيانا بين بعض المسيحيـين المستعربين من جهة ، وبين الاندلسيين الذين اتقنوا لغة المسيحيين من جهة اخرى ، فهؤلاء واولئك كثيرا ما التحما فى مجادلات دينية .
راجع ابن الخطيب فى : الاحاطة ، لوحة 111 ، 222 من مخطوطة جاييجوس بالاسكوريال .

وعدلت الشعر بميزان العروض ، ونظمت ونثرت ، وأكثرت فما عثرت . وعبرت حلم النوم ، ولبست الخرقة بشرط القوم (23) ، ولزمت خلوة الذكر ومعتكف الصوم .

وأما معرفتي بالاخبار ، وزرع الارض بالاشبار ، ما بين جليقية (24) الى الانبار (25) ، وأوصاف المدن الكبار ــ فقد ثبت بالاختبـــار .

قال : فأثار قديمى ، وأذكرنى بنديمى ، فقلت : الله أكبر ، أوضح ــ الخبــر ــ المخبر . فخضت اليه ومن بينى وبينه وهم بحر زاخر ، وأول ليس له آخر ، وبهم يسخر منه الساخر ، ما بين كبش مجتــر وعجل ناخر (26) . وقلت : أيها الحبر ، ضالتى قريب أمدها ، معروف معتمدها . وعلى ذلك فالشكر (118 : أ) ممنوح ، والرفد طوفان نوح . فالان (27) العريكة ، وسلم النطع والاريكــة ، وقال : أجل واعرض ،

---

23) بشرط القوم : يعني وفق شروط قوم الصوفية فى اللباس المرقع .

24) جليقية : ادارة اسبانية انشاها « فرناندو الاول » لابنه « غارسيا » ، ضمت الى قشتالة عام 1662 م = 1073 هـ ، وتمتع امراؤها ببعض الاستقلال الذاتــى الى اواخر القرن الخامس عشر ، موقعها شمالى الاندلس فى أقصى الغرب. وقد وصل الى هذا المكان « موسى بن نصير » لما فتح الاندلس ، وينسب الى هذه الناحية « عبد الرحمن بن مروان الجليقى » من الخارجين بالاندلس أيام بنى أمية .
راجع : المعجم للحموى ج 3 ص 257 .

25) الانبار : آثار مدينة قديمة فى العراق على ضفة الفرات ، فتحها خالد بن الوليد القائد الاسلامى على عهد الخليفة ابى بكر الصديق عام 634 هـ (1236 م). وكانت مقرا للخلافة الاسلامية حتى تأسست بغداد ، فاضحت حاضرة الخلافة حيث جددها أبو العباس السفاح ، أول خليفة عباسى . وينسب لهذه المدينة القاضى أحمد بن نصر بن الحسين الانبارى .
راجع : المعجم للحموى ج 3 ص 257 .

26) عجل ناخر : اى يمد نفسه من خياشيمه .

27) فى نسخة (س) « فألن » بصيغة الامر ، ولعل سياق المحاورة يتمشى مــع نسختنا .

وأنزل السؤال وافرض . فقلت : بى الى تعرف البلدان جنوح وجنون ، والجنون فنون ، وقد ظفرت قبلك بنقاب (28) ، وعود احتقاب ، وسارب أنقاب (29) ، حصل به من طلبى الشطر (30) ، وبك يتم الشكر (31) ، ويعظم الخطر . فقال : الناس متهم (32) ومنجد (33) ، **(وخائل وممجد)**، ولا تجود يد الا بما تجد .

والله المرشد . وجعل ينشد :

اذا المشكلات تصدين لى كشفت غوامضها بالنظر

ولست بامعة فى الرجال أسائل هذا وذا : ما الخبر (34)

ولكننى مذرب الاصغرين أبين — مع ما مضى — ما غبر (35)

ثم قال : هات ، أمن عقدك الشبهات .

---

(28) نقاب : رجل علامة .

(29) سارب انقاب : السارب ، هو الذاهب على وجهه بالانقاب ، وهى الطرق فى الجبل .

(30) فى نسخة (س) « الشكر » .

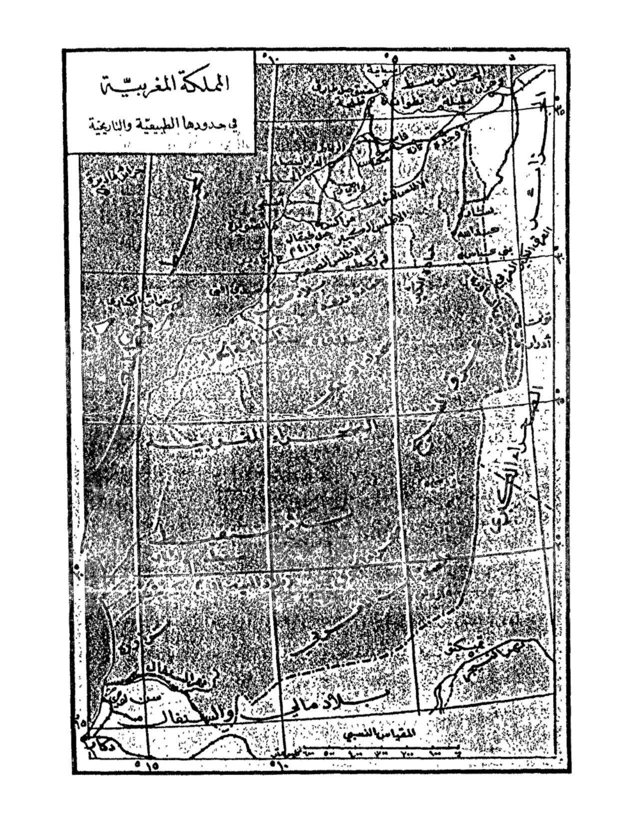
(31) فى نسخة « الشطر » .

(32) متهم : ساكن تهامة ، وهى اراضى السهل الساحلى الضيق ، الممتد من شبه جزيرة سيناء شمالا الى أطراف اليمن جنوبا ، وفيها مدن نجران وجدة وصنعاء ، وسكانها يميل بعضهم الى الزراعة بينما يميل البعض الى التجارة والملاحة وصيد اللؤلؤ .

(33) منجد : ساكن نجد ، ونجد ، اقليم بالسعودية ، والعاصمة الرياض ، وهى بلاد جبلية فى شمال شبه جزيرة العرب ، نقيضها تهامة ، وهى البلاد الساحلية الغربية هناك .

(34) فى نسختى (س ، ر) « وما الخبر » بالواو ، وهو خطا فى الوزن، وهكذا أوردها موللر .

(35) فى نسختى (ظ ، س) « وما غبر » ، وهو خطا فى الوزن ايضا ، وقد أوردها موللر هكذا ايضا .


المملكة المغربيّة
في حدودها الطبيعيّة والتاريخية
اسبانية
البحر المتوسط
وهران
مضيق جبل طارق
مليلة
تطوان
طنجة
فاس
وجدة
تازة
مكناس
الرباط
الدار البيضاء
مراكش
الأطلس المتوسط
الأطلس الكبير
جبل طبقال ٤١٦٥ م
الأطلس الصغير
بشار
بني عباس
توات
أدرار
تمبكتو
بلاد مالي
نهر السنغال
داكار
المقياس النسبي

1 ـ « بـــادس » (36)

قلت : ما تقول فى بـــادس ؟

قال : بدأت بحمدلة الرقعة ، وبركة البقعة ، ومدفن الولى (37) ، والنحر غير العاطــل ولا الخلى من الحلى . بلد السراوة والشجاعة ، والايثـــار علـــى فرض المجاعـــة ، والنفوس الاوابـــة (الـــى اللـــه) الرجاعة ، حيث البر والحوت ، والخشب الذى ينشأ منه كل منحوت ، والبأس والاقدام ، والفاكهة الطيبة والادام ، (118 : ب) ورب الجبال ، وفضل للمدافعة لصهب السبال . الا أنها موحشة الخارج ، وعــرة المعارج ، مجاورة غمارة (38) بالمارد والمارج ، فهم ذوو دبيب ، فى مدارج تلك الغرابيب (39) ، وكيدهم ـــ ببركة الشيخ ـــ فى تتبيب (40) .

---

36) بادس : مدينة اندثرت فى أواخر القرن السادس عشر الميلادى ، حيث خربها الاسبان ، ويقال لها : « باديس » « وبادس غمارة » ، كما يقال لها «بادس فاس » تمييزا لها عن « بادس الزاب » الواقعة بالجزائر ، أما الاولى فكانت تقع على ساحل البحر الابيض المتوسط ، وتبعد عن « الحسيمة » بنحو 40 كم راجع : صحيفة الميثاق المغربية عدد 7 من السنة الاولى 1962 م ، وكـــذا ياقوت الحموى فى « معجم البلدان » ج 2 ص 29 .

37) يقصد بالولى هذا : أبو يعقوب يوسف بن محمد بن عبد الله الزهيلى البادسى ، نسبة الى بادس . (640 ـــ 734 هـ = 1242 ـــ 1333 م) عالم متصوف ذكره ابن خلدون عرضا فى حديثه عن قبائل البربر . عاصر الملك أبا الحسن المرينى ، وقد عثر مؤخرا على مخطوط الفه « أبو محمد الاوربى » فى مناقب ابى يعقوب البادسى .
راجع : صحيفة الميثاق المغربية عدد 7 ، 8 من السنة الاولى 1962 م .

38) غمارة : قبيلة بربرية ، وتسمى الجبال التى تسكنها بهذا الاسم أيضا .

39) مدارج غرابيب : طرق حالكة السواد .

40) تتبيب : هـــــلاك .

2 ــ « سبتـــــة » (41)

قلت : فمدينـــة سبتـــة ؟

قال : عروس المجلى ، وثنية الصباح الاجلى . تبرجت تبرج العقيلة ، ونظرت وجهها من البحر فى المرآة الصقيلة ، واختص ميزان حسناتها بالاعمال الثقيلة . واذا قامت بيض أسوارها مقام سوارها ، وكان جبل بنيونش (42) شمامة أزهارها ، والمنارة منازه شوارها (43) ، كيف لا ترغب النفوس فى جوارهـــا ، وتخيم الخواطر بين أنجادهـــا وأغوارها ! ! الى المينا الفلكية ، والمراسى (44) الفلكية ، والركيـــة الزكية (45) ، غير المنزورة ولا البكية (46) ذات الوقود الجزل ، المعد للازل ، والقصور المقصورة على الجد والهزل ، والوجوه الزهر السحن ،

---

41) سبتة : هى Ceuta احدى المدن الساحلية على شواطىء البحر الابيـــض المتوسط شمال المغرب ، ولكنها تتبع حاليا اسبانيا ، لها تاريخها على مـــر العصور الوسطى الاسلامية ، من حيث كونها قاعدة سياسية هامة ، وقـــد اتخذها الامويون فى العصر الاسلامى قاعدة يصدون منها تيار الفاطميـــين . وفى القرن الثالث عشر استولت عليها أسرة أندلسية اسمها « بنى العزفى »، وبقيت تحت حكم بنى الاحمر فترة من الوقت ، ثم استولى عليها البرتغال فى القرن الخامس عشر ، واخيرا استولى عليها الاسبان ، وما تزال تحت حكمهم حتى اليوم . ومنها « مرانة السبتى » من أعلم الناس بالحساب والهندســـة والفرائض والتأليف ، ومن تلاميذته ابن مرانة الفرضى « الحاســـب » ، يقولون : انه كان من أهل بلده ، وكان المعتمد بن عباد يقول : « اشتهيت أن يكون عندى من أهل سبتة ثلاثة نفر : « ابن غازى » الخطيب ، « وابن عطاء» الكاتب ، « وابن مرانة » الفرضى .

انظر : معجم البلدان للحموى ج 10 ص 182 ــ 183 .

42) بنيونش : قرية تجاور سبتة من الغرب ، لا زالت آثارها باقية حتى اليوم .

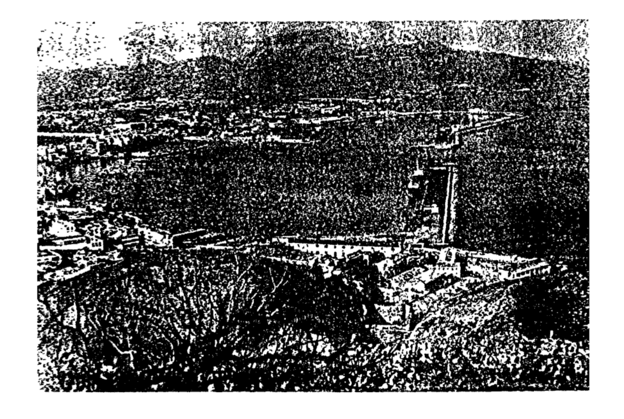
43) شوارها : حسنها .

44) فى نسخة « س » والمراقى ، بدل « والمراسى » .

45) الركية الزكية : البئر الطاهرة .

46) البئر غير البكية : هى التى لا تفيض فيض الدموع حين البكاء ، والتعبير عموما كناية عن أن منسوب المياه فيها معتدل .

سبتة



ساحل المدينة وجبل بنيونش

المضنون بها عن المحـــن . دار الناشبة ، والحامية المضرمة للحـــرب المناشبة ، والاسطول المرهوب ، المحذور الالهوب ، والسلاح المكتوب المحسوب ، والاثر المعروف المنسوب . كرسى الامراء والاشراف ، والوسيطة لخامس أقاليــم البسيطة ، فــلا (119 : أ) حظ لهـــا فى الانحــــــــراف .

بصرة علوم اللسان ، وصنعاء الحلل الحسان ، وثمرة امتثال قوله تعالى : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان » (47) ، الامينة على الاختزان ، القويمة المكيال والميزان ، محشر أنواع الحيتان ، ومحط قوافــــل العصير والحرير والكتان ، وكفاهـــا السكنـــى ببنيونش (48) فى فصـــول الزمان ، ووجود المساكن النبيهة بأرخص الاثمان . والمدفن المرحوم غير المزحوم ، وخزانة كتب العلوم ، والآثار المنبئة عن أصالة الحلوم (49) الا أنها فاغرة أفواه الجيوب (50) للغيث المصبوب ، عرضة للريـــاح ذات الهبوب ، عديمة الحرث فقيرة من الحبوب ، ثغر تنبو (52) فيه المضاجع بالجنوب . وناهيك (59) بحسنة تعد من الذنـــوب ، فأحـــوال أهلها رقيقة (52) ، وتكلفهـــم ظاهر. مهما عرضت وليمة أو عقيقـــة ، واقتصادهم لا تلتبس منه طريقة ، وأنساب نفقاتهم ــ فى تقدير الارزاق ــ عريقة ، فهم يمصون البلالة مص المحاجم ، ويجعلون الخبز فى الولائم بعدد الجماجم ، وفتنتهم ببلدهم فتنة الواجم ، بالبشير الهاجم (53) ،

---

(47) اقتباسا من قوله : « ان الله يامر بالعدل والاحسان ، وايتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » سورة النحل ، آية : 9.

(48) هى « Boliones » قرية تجاور سبتة من الغرب ، كانت تشتهر بحماماتهـــا وبساتينها وانهارها ، ويسمى الجبل هناك باسمها

(49) الحلوم : العقول ، والمفرد ، حلم .

(50) فى نسخة (ط) « الجنوب » وهى انسب للسياق .

(51) ناهيك : حسبك ، بمعنى يكفيك .

(52) فى نسخة (س) « دقيقة » وكلتاهما مناسبة للمعنى العام .

(53) كناية عن حبهم الشديد لبلدهم ، فهم مفتونون بها ، كفتنة الحزين ببشير مندفع نحوه ، او كفتنة راعى أرض مجدبة تدفق عليها المطر .

وراعى الجديب بالمطر الساجم (54) ، فلا يفضلون على مدينتهم مدينة ؛ (119 : ب) الشك ــ عنــدى ــ فى مكة والمدينة .

3 ــ « طنجـــــة » (55)

قلــت : فطنجـــة ؟

قال : المدينة العادية ، والبقعة التى ليست بالخبيثة ولا بالردية ، اليها بالاندلس كانت نسبة المغاربة ، والكتائب المحاربة ، والرفق (56) السائحة فى الارض الضاربة . سورها ليس بمثلوم ، وساكنها غير ملوم ، وفضلها معلوم ، ودارها ليست بدار لوم . ميدان أفراس كبير ، ومعدن هند (57) وذكير (58) . مثلت بين المنار والقالة «59» ، وحكماهــا فى التفضيل ، فأشكل الحكم وتعذرت المقالة ، ولم يصح البيع ولا وجبت الاقالة . هذى سماء بروج ، وهذى أزهار مروج ، وكلاهما مركب سرور

---

(54) المطر الساجم : الكثير المنصب .

(55) طنجة :« Tanger »احدى مدن المغرب القديمة ، موقعها على المحيط الاطلسى بينها وبين اوروبا مسافة مضيق جبل طارق . عرفها الفينيقيون مركزا تجاريا هاما ، ثم القرطاجنيون كذلك فى تبادل السلع الهامة ، وتموين السفن التى فى طريقها الى المحيط . ولما ظهرت الدولة الرومانية واكتسحت الدولــــة القرطاجنية فرضت سيادتها ــ ضمن ما فرضت ــ على طنجة ، والتى عرفت ازدهارا تجاريا ضخما بين المغرب ــ عن طريقها ــ وبين روما مركز الدولة الرومانية . وتوالى الزمن على المدينة ، حتى جاء عقبة بن نافع وموسى بن نصير الفاتحان الاسلاميان للمغرب عام 62 هـ (681 م) ؛ ومن يومها وطنجة العربية الاسلامية محافظة على طابعها ، حتى غدت قطعة من المغرب عام 1956 م (1376 هـ) .

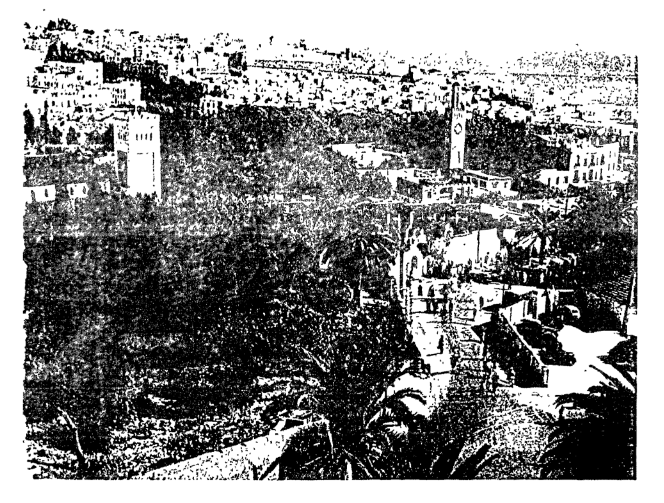
(56) الرفــق : المعونـــة .

(57) هند : السيف . ويقال ايضا للمائة من الابل فما فوقها .

(58) ذكير : الذكير هو أجود الحديد .

(59) القالة : يعنى بها الميناء ، وهى بالاسبانية : La Cala

طنجة



المدينة العربية

وسروج ، ومتمتع فروج ، ومطعم قديد ومروج . ديارها نبيهة ، وأحوالها ــ بأحوال جارتها (الاندلس) شبيهة .

لكن رملها يحشو العين بالذرور عند المرور ، **(ويدخل الدور ، ويفسد القدور)** ورياحها لا تسكن الا فى الندور ، وظلمة جوها متسببة عما وراءها من مغرب الشموس والبدور . وعين برقانها ــ أعذب عيونها ــ مشهور بتوليد الهوج ، قران عند الناس غير ذى عوج ، ويذكر أن سليمان اختصها بسجن مردة الجن ، فيعثر بها على (120 : أ) أوان ملئت ريحا ، تثير تبريحا (60) ، ويسندون ــ لذلك ــ اغكا صريحا .

4 ــ « قصر كتامة » (61)

قلت : فقصر كتامة ؟

قال : مغرد عندليب (62) ، وعنصر بر وحليب ، ومرعى سائمة ، ومسرح بهيمة فى الجميم هائمة ، ومسقط مزنة عادية وديمة دائمة . وبه التفاح النفاح ، ترتاح الى شميمه الارواح ، والفوائد قد ثقلت بها الادواح ، يقذف به السماء والصباح ، ويتفنن فيه الحرام والمباح ، والسمك كما جردت الصفاح اذا استبحر الكفاح . وطريقه مسلك القافلة ، وببابه السوق الحافلة . ينسل اليها من غمارة قرود وفهود (63)

---

60) تبريحا : شدة وهلاكا .

61) قصر كتامة : اراد به « القصر الكبير » احد مدن الشمال بالمغرب ، على بعد 25 كم من مدينة العرائش ، كما يبعد عن ساحل المحيط الاطلنطى بنحو 35 كم .
راجع : ياقوت الحموى فى « معجم البلدان » ج 15 ص 360 .

62) الجميم : يقال ارض جميم أى ملساء .

63) الوان مختلفة من افراد قبيلة غمارة

وأمة صالح وهود ، ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود (64). الا أنه قور (65) قد تهدم ، ودار الندوة لام ملدم (66) ، ومنتزى لهائج المرار وثائر الدم . جثم الهواء الخبيث فى بطيحته وربض ، وانبسط وما انقبض ، وجهز ليله عسكر البعوض الهاجم ، دربة بمص المحاجم . وأما وحله فلا يعبر ولا يسبر ، وان اسهبت العبارة فالامر أكبر .

5 ــ « أصيـــــلا » (67)

قلـــت : فــأصيــــلا ؟

قال : كثيرة المرافق ، رافعة فى الخصب اللواء الخافق ، (120 : ب) العصير الاثير ، والحوت الكثير ، والادام الذى يرمى به مــن حكم عليه بالتعزيز (68) ، والسفن المترددة فيها الملف (69) والابازير . الا أن حصنها من المنعة برى ، وساكنها بربرى ، وجارها ــ من غمارة ــ جـــــرى .

---

64) اقتباسا من قوله تعالى : « ان فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الاخرة ، ذلك يــوم مجموع له الناس ، وذلك يوم مشهود » سورة هود ، آية : 103

65) قــور : بئر .

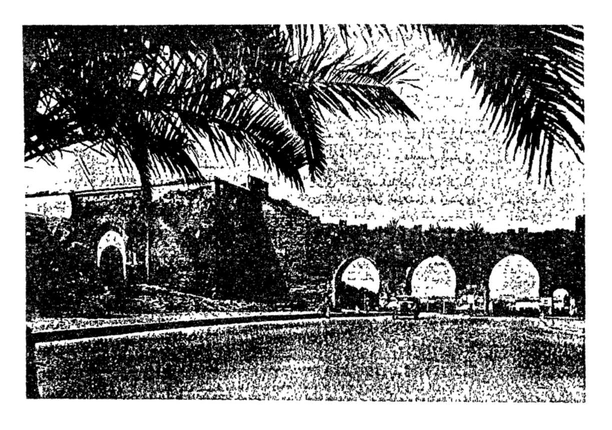
66) ام ملدم : كنية الحمــى .

67) اصيلا : هى « Arcila » مدينة صغيرة على ساحل المحيط الاطلنطى ، ينسب اليها الاديب المحدث ابو محمد عبد الله بن ابراهيم بن محمد الاصيلــى ، تراس الكتابة بقرطبة على عهد المستنصر .
راجع : ياقوت الحموى « معجم البلدان » ج 15 ص 212 .

68) كناية عن وفرة الزاد بالبلد .

69) الملف : لفظ شامل للغطاء والكساء .

ســـــــلا



الاسوار القديمة الاثرية
(مدخـــل المدينـــة الشمالي)

6 — « ســـــــلا » (70)

قلـــت : فمدينـــة ســــــلا ؟

قال العقيلة المفضلة ، والبطيحة المخضلة ، والقاعدة المؤصلة ، والسدرة المفصلة . ذات الوسامة والنضارة ، والجامعة بين البداوة والحضارة . معدن القطن والكتان ، والمدرسة والمارستان ، والزاوية كأنها البستان ، والوادى المتعدد الاجفان ، والقطر الآمن عند الرجفان ، والعصير العظيم الشأن ، والاسوق الممتازة حتى برقيق الحبشان . اكتنفها المسرح ، والخصب الذى لا يبرح ، والبحر الذى يأسو ويجرح ، وشقها الوادى يتمم محاسنها ويشرح .

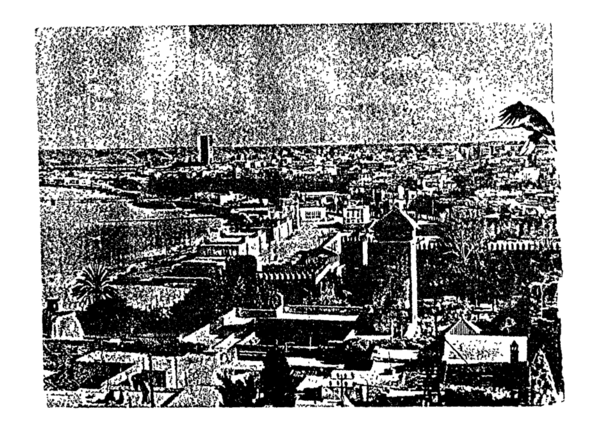
وقابلها **الرباط** (71) ، الذى ظهر به — من المنصور — الاغتباط ، حيث القصبة والساباط (72) ، ووقع منه بنظرة الاعتباط ، فاتسع الخرق

(70) هى Salé مدينة موازية لوادى ابى الرقراق الذى يفصلها عن مدينة الرباط العاصمة ، يعتقد بانها تأسست فى القرن الحادى عشر الميلادى ، ويـــرى بعض المؤرخين انها مدينة رومانية قديمة ، نالت عناية بنى مرين فسوروها ، وانشاوا بها كثيرا من المرافق العامة ، وتعتبر عمارتها نموذجا للفن المغربى الرائع فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، ولسلا شهرة صناعية تجاريـــة فى الجلد والاوانى النحاسية والحديدية ونسج الزرابى والطـــرز وصناعـــة الحصر ، وهى المدينة التى بقى فيها ابن الخطيب منفيا لمدة ثلاث سنـــوات تقريبا (760 — 763 هـ / 1358 — 1361 م) حيث الف بها كتابه هذا ضمن ضمن كتب اخرى ، حينما جاء الى المغرب مع سلطان غرناطـــة المخلـــوع « الغنى بالله محمد الخامس ابن الاحمر » .
راجع : المعجم للحموى ج 10 ص 231 .

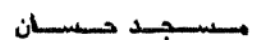
(71) الرباط : « Rabat » هى عاصمة المغرب الادارية، وقد اسسها الخليفة المنصور ابو يوسف بن عبد المؤمن ، (554 هـ 595 هـ) = (1159 — 1198 م) اشهر ملوك الموحدين ، وسماها « رباط الفتح » ، وهى مدينة الابواب العظيمة ، اقامها الموحدون ، فقد كانت رباطهم العسكرى ، كما ان بها صومعة حسان الشامخة البتراء ، تشرف على المدينة وعلى بقايا اطلال المسجد ، وهـــذه الصومعة من طراز الكتبية بمراكش والخيرالدا باشبيلية .
راجع : « السلاوى » فى الاستقصا ج 1 ص 16 — 181 .

(72) الساباط : سقيفة بين دارين تحتها طريق .

الربـــــاط



المدينة كما تبدو من وادي ابي الرقراق
وحيث تطـل عليه قصبـة الاودايـة

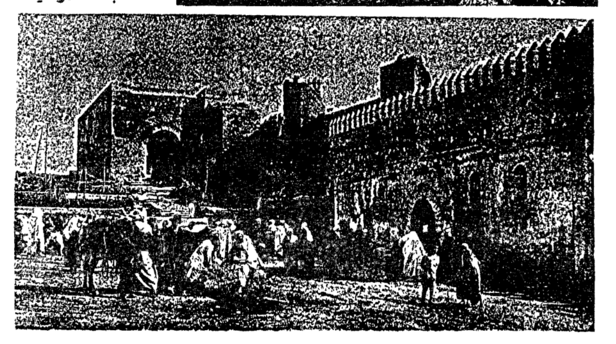


مسجد حسان

« الصومعة وبعض الاعمدة »
— الرباط —



قصبة الاودابة



وعظم الاشتطاط ، وبعد الكمال يكون الانحطاط (73) . الى شامة (74) مرعى الذمم ، ونتيجة (121 : أ) الهم ، (**ومشمـــخ الانوف ذوات الشمـــم**) (75) وعنوان بـــر الديم ، حيث الحسنات المكتتبة ، والاوقاف المرتبة ، والقباب كالازهار ، مجودة بذكر الله آناء الليل وأطراف النهار ، وطلل حسان المثل فى الاشتهـــار .

وهى ــ على الجملة من غيرها ــ أوفق ، ومغارمها ــ لاحترام الملوك الكرام ــ أرفق ، ومقبرتها المنضدة عجب فى الانتظام ، معدودة فى المدافن العظام ، وتتأتى بها ــ للعبادة ــ الخلوة ، وتوجد عندها ــ للهموم ــ السلوة ، كما قال ابن الخطيب :

وطلت حثيث السير فيمن فلا الفلا فلا خاطرى لما نأى وانجلى انجلى
ولا نسخت ــ كربى بقلبى ــ سلوة فلما سرى فيه نسيم سلا ســـــلا

وكفى بالشابل رزقا طريا ، وسمكا بالتفضيل حريا ، يبرز عـــدد قطر الديم ، ويباع ببخس القيم ، ويعم حتى المجاشر (76) النائية والخيم الا أن ماءها لا يروى به بارد (77) ، لا كريم ولا بارد ، وأليفها شارد ، والخزين بها فاسد ، وبعوضها مستأسد ، راضع غير مفطوم ، واسم للخد والخرطوم ، بذيالك الخرطوم ، خالع للعذار غير مخطوم ، تصغى

(73) يرمى بهذا الى ما روى عن المنصور مؤسس الرباط عند ما توفى ، من أنه قال: ندمت على ثلاثة أشياء : بناء مدينة الرباط ، واسكان عرب بنى هـــلال فى المغرب ، واطلاق اسرى النصارى ، وهم الذين كان قد أسرهم فى موقعـــة « الارك » الشهيرة (ربيع الاول 592 هـ = 1195 م) ، وقد تحققت نبوءة المنصور فى العاقبة السيئة لهذه الامور الثلاثة ، فقد اتخذ الفرنسيون مدينة الرباط قاعدة بعد احتلالهم المغرب فيما بعد ، واثار عرب بنى هلال القلاقل والفتن فى المغرب ، واخذ النصارى بثارهم فى موقعة « العقاب » حيـــــث هزموا المسلمين فيها شر هزيمة (15 صفر 609 هـ = 18 يوليو 1212 م).

(74) فى نسختى (ط ، س) « شالة » وهو الاوفق .

(75) زيادة فى (س ، ط) .

(76) المجاشر : يعنى القرى والضياع ، ويقال لها فى المغرب الآن « المداشر » .

(77) فى نسخة (س) « وارد » وهو أصوب .

ـ لرنته ـ الآذان ، ويفتك بوكز السنان ، كالقوس تصمى (121 : ب) الرمايا وهى مرنان (78) ، وديارها ـ فى الماء ـ دار عثمان (79) ، وطواحنها غالية الاثمان ، وكثبانها العفر تلوث بيض الثياب ، طى العياب، وعابر واديها ـ الى مأرب أكيد ـ فى تنكيد . الى غلبة الامساك، وخوض النساك (80) ، وكثرة أرباب الخطط ، (81) والاغياء فى الشطط ، تذود ـ عن جناته للاسد ـ جنان ، (82) فلا يلتذ ـ بقطف العنقود منهـا ـ بنان ، وفى أهلها خفة ، وميزانها لا تعتدل منه كفة

7 ـ « أنفـا » (83)

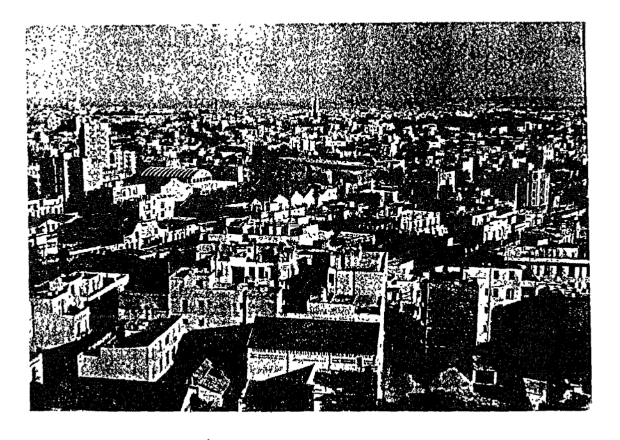
قلت : فأنفـا ؟

قال : جون (84) الحط والاقلاع ، ومجلب السلاع ، تهدى اليهـا السفن شارعة ، وتبتدرها مسارعة . تصارف برها الذهبى بالذهـب الابريز ، وتراوح برها وتغاديه بالتبريز .

---

78) قوس مرنان : صلبة مرنة .
79) يرمى بذلك الى انه لا ماء فيها ، اذ دار سيدنا عثمان بن عفان الخليفة لم يكن بها ماء اثناء حصـاره .
80) يغلب على اهل البلد البخل ، وعلى نساكها خوضهم فى اعراض الناس .
81) الخطط : اربـاب الوظائـف .
82) جنان : حراس كالجن فى الذب عن البساتين .
83) أنفا : الدار البيضاء« Casablanca »العاصمة التجارية للمغرب الاقصى علـى ساحل المحيط الاطلنطى ، تشتهر بالانتاج الزراعى والصناعى . وقد وقـع عليها اعتداء من الاساطيل البرتغالية عام 1465 م حيث دمرتها تماما ، بسبب منافستها التجارية لثغر قادس ، ولكن أعيد بناؤها عام 1515 م ، وقد قست عليها الطبيعة من البحر فاجتاحت معظمها الامواج عام 1755 م ، ولم تعـد مدينة تتطور وتزدهر الا فى عام 1907 م ، وهى اليوم كبرى مدن المغـرب مساحة ، واعظمها تعدادا للسكان ، ذات مرسى ضخم تبلغ ارصفته مساحة 6 كيلومترات . والسكان حاليا يتجاوزون المليون والنصف نسمة تقريبا .
84) الجون : احد انواع القطا ، اسود البطن والجناح ، والجونة : الشمس عنـد مغيبها والسياق يحتمل احد المعنيين .

الـدار الـبـيـضـاء



« منظـر حديـث للمدينـة »

يكثـر الطيـر حيث ينتشر الحـ   ـب وتغشـى منـازل الكرمـاء

وخارجها يفضل كل خارج ، وقانصها يجمع بين طائر ودارج ، وفواكهها طيبة ، وأمطار عصيرها صيبة ، وكيلها وافر ، وسعرها ــ عن وجه البرخاء ــ سافر ، وميرتها لا ينقطع لها خف ولا حافر . لكن ماءها وهواءها عديما الصحة ، والعرب عليها فى الفتن ملحة ، والامراض بهـا تعيث وتعبث ، والخزين بها لا يلبث

8 ــ « أزمـــور » (85)

قلـت : فـأزمـــور ؟

قال : جار واد وريف (86) ، وعروس ربيع وخريف ، وذو وضع شريف . أطلت على واديه المنازه (122 : أ) والمراقب ، كأنها النجوم الثواقب ، وجلت من خصبه المناقب (87) ، وضمن المرافق نهره المجاور وبحره المصاقب (88) . بلد يخزن الاقوات ، ويملأ اللهوات . باطنه الخير ، وادامه اللحم والطير . وساكنه رفيه ، ولباسه يتحد فيه ، ومسكنه نبيه ، وحوته الشابل ليس له شبيه . لكن أهله ــ أنما حرثهم وحصادهم ــ اقتصادهم ، فلا يعرفون ارضاخا (89) ، ولا وردا نضاخا ،

---

85) أزمور : هـى « Azammur » مدينة ساحلية على المحيط الاطلنطى بالمغـرب. موقعها على الجانب الايسر لمصب وادى ام الربيع ، وعلى مسافة 80 كم من الدار البيضاء جنوبا ، وهى مدينة صغيرة مشيدة بجانب راس صخـرى عال ، كانت عاصمة اقليم دكالة القديمة .

راجع : J. Leon Africano, Op. Cit. P. 83

والتعريف بابن خلدون ص 44 حاشية 4 .

86) وريف : ممتد واسع .

87) المناقب : الطريق فى الجبل .

88) المصاقب : المجاور .

89) ارضاخا : تساهـلا .

يترامون على حبة الخردل (90) بالجندل (91) ، ويتضاربون على الاثمان الزيـــوف (92) بالسيوف . بربرى لسانهم ، كثير حسانهم ، قليـــل احسانهم ، يكثر بينهم ـــ بالعرض ـــ (93) الافتخار ، ويعدم ـــ ببلدهم ـــ الماء والملح والفخـــــار .

9 ـــ « تيـــــط » (94)

قلـــت : فتيـــــط ؟

قال : معدن تقصير ، وبلـــد بين بحرى ماء وعصير ، وربـــاط للاولياء بـــه (سـرور)(95) ، واغتباط ، ومسجدها تضيق عنه المدائن منارا عاليا ، وبقلادة الاحكام حاليا . الا أن خارجها لا يروق عين المقيم والمسافر ، ولا يشوق بحسن سافر ، ومؤمنه يشقى بصداع كافر ،

---

90) الخردل : نبات برى ينبت فى الحقول مع الزرع ، أو على حافة الطرق ، حبـــه أسود وصغير جدا ، يستعمل فى التوابل ، وله فوائد طبية ، كما يستخرج منه الزيـــت .

91) الجندل : الصخر العظيم

92) الاثمان الزيوف : النقود الزائفة .

93) العرض : ضد الجوهر .

94) تيط : هى « Tit » تقع جنوبى مدينة الجديدة ، وهى ضمن اقليم دكالة ، علـــى ساحل المحيط الاطلنطى .

95) زيادة فى (س ، ط) .

وجماه عدو كل خف وحافر ، فلولا ساكنه لم ينبس يوم فخر ، ولم ينم الا الي صخـــر (96) .

10 ـ « آسفـــــــى » (97)

قلت : فربـــاط آسفـــى ؟

قال : لطف خفى ، وجناب حفى ، ووعد وفى ، ودين ظاهره مالكى ، وباطنه حنفى . الدماثة والجمال ، والصبر (122 : ب) والاحتمال ، والزهد والمال ، والسذاجة والجمال (98) . قليلة الاحزان ، صابرة علـــى الاختزان ، وافية المكيال والميزان ، رافعة اللواء ، بصحة الهواء . بلد

96) كناية عن أنها بلدة شبه منقطعة عن سواها ، لوعورة الطرق اليها ، كما اسلف فى وصفها ، وهو يورى بصخر المبكى عليه من أخته الخنساء بنت عمرو بن الشريد السلمية ، عاش صخر هذا فيما بين القرنين السادس والسابـــع الميلادى ، وخرج فى احدى الغزوات ، فقاتل حتى اصابه جرح فمات ، فحزنت عليه اخته اكثر من حزنها على اخيه معاوية ، الذى توفى قبله ، لما للاول من أياد كريمة عليها . ولها ديوان خاص فى رثاء صخر ، فمن قولها فيه ترثيه :

وان صخــرا لتأتــم الهــداة بــه ... كأنــه علــم علـــى رأسه نــار

جلــد جميــل المحيــا كامــل ورع ... وللحروب غــداة الروع مسعار

حمــال الويـــة ، هبــاط أوديـــة ... شهاد أنديـــة ، للجيش جــرار

راجع : الموجز فى الادب العربى وتاريخه ، نشر دار المعارف ج 1 ص 204 ،

97) رباط آسفى : هى « Safi » مدينة على ساحل المحيط الاطلنطى بالمغـــرب ، وهى أصلا مؤسسة برتغالية ، كادت تندثر عندما غادرها مؤسسوها ، ولم يبق من آثارهم فيها غير حصن عظيم ، وثكنة ، وقصر يسمى « دار البحر » ، وترتكز ثروة آسفى على صيد الاسماك، فهى من اهم مراسى الصيد للسردين فى العالم ، ومن مرسى آسفى يصدر الفوسفات المستخرج من مناجـــم « كشكاط » ، وتبعد المدينة عن الدار البيضاء بمسافة 252 كم .

98) فى نسخة أخرى « والجلال » وهو انسب .



موصوف ، برفيع ثياب الصوف ، وبه تربة الشيخ أبى محمد صالح (99) . وهو خاتمة المراحل ، لمسورات ذلك الساحل . لكن ماءه قليل ، وعزيزه — لعادية من يواليه من الاعراب — ذليـــل (100) .

11 — « مـــراكـــش » (101)

قلت : فمدينـــة مـــراكـــش ؟

قال : فتنفس الصعداء ، وأسمع البعداء ، وقال : درج الحلى ، وبرج النيـــر الجلى ، وتربة الولى ، وحضرة الملك الاولى ، وصرح الناصر الولـــى . ذات المقاصير (102) والقصور ، وغابـــة الاسد الهصـــور ،

---

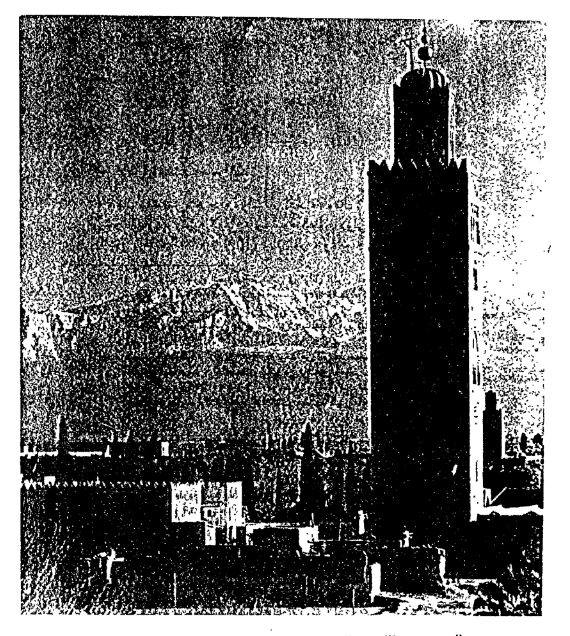
99) هو احد رواد الطرق الصوفية ، عاش فى أوائل القرن السابع الهجرى ، كـــان يرأس — بهذه البلاد — جمعية لتيسير الحج ، لحراسة القوافل الذاهبة الى الاراضى المقدســـة .

100) كناية عن كثرة السطو على الموسرين بالمدينة من قبل الاعراب المجاورين لهـــا .

101) هـــى بالاسبانية« Marraquex » تبعد عن الرباط بمسافة 326 كم ، عاصمة الجنوب بالمغرب ، اسسها يوسف بن تاشفين اعظم ملوك المرابطين عـــام 454 هـ = 1062 م ، كما بنى بها مسجده المعروف باسم « جامع يوسف » . استمرت عاصمة للموحدين كما كانت عاصمة للمرابطين ، ولكن بنى مريـــن تحولوا عنها الى فاس ، ففقدت مراكش من يومها مركزها السياسى ، وقد شيد بها الموحدون جامع الكتبية بمنارته الشهيرة ، كما أن بها من آثـــار السعديين مقابرهم العظيمة . وتشتهر المدينة بصناعة الجلد والصباغـــة والنحاس ، والمنسوجات الوطنية ، والزرابى . وخارجها مزارع الـــزيتون ، وواحات النخيل الشاسعة ، تحوطها جبال الاطلس التى تكسوها الثلـــوج شتاء . وللعلويين بها جنان أكدال التى انشاها عبد الرحمن بن هشام العلوى، وبها ضريح القاضى عياض ، وأبو العباس السبتى ، وابو القاسم السهيلى، ومحمد بن سليمان الجزولى .
راجع : البغدادى فى « مراصد الاطلاع ، على اسماء الامكنة والبقاع » ج 3 ص 1251 . وكذا : J. Leon. Op. Cit. P. 67-68

102) المقاصير : ج مقصورة ، وهى الدار الواسعة المحصنة .

مــراكـــــش



صومعة مسجد الكتبيــة ـــ واحدة من ثلاث ذات هندسة واحدة :
الخيرالدا باشبيــلية ، والكتبيـــة بمراكش ، وحسان بالربـــاط ٠

وسدة(103) الناصر والمنصور . بعدت عن المركز دارتها ، وجرت ــ على قطب السياسة ــ ادارتها ، وسحرت ــ العيون ــ شارتها ، وتعبــد الاباءة اشارتها ، وخاضت ــ البحر الخضم ــ نذارتها وبشارتهــا . اقتعدت البسيط المديد ، واستظهرت بتشييد الاسوار وأبراج الحديد . وبكى الجبل من خشيتها بعيون العيون ، فسالت المذانب كصفاح القيون ، وقيدت طرف الناظر المفتون ، أدواح الشجر بهــا وغابات الزيتون .

(123 : أ) فما شئت من انفساح السكك ، وسبوغ الشكك(104)، وانحلال التكك ، وامتداد الباع فى ميدان الانطباع ، وتجديد فنــون المجون بالمد والاشباع . زيتها الزمن يعصر ، وخيرها يمد ولا يقصــر ، وفواكهها (لا تحصــى) ولا تحصر . فاذا تناصف الحــر والبــرد ، وتبســم الزهر وخجــل الورد ، وكســا ــ غدرانها الحائــرة ــ الحلق السرد (105) ، قلت : أنجز ــ للمتقين من الجنة ــ الوعد ، وساعــد السعد ، وما قلت الا بالذى علمت سعد (106) . ومنارها العلم فى الفلاة، ومنزلته ــ فى المآذن ــ منزلة والى الولاة . الا أن هواءها محكم فى الجبــاه والجنوب (يحمى عليها بكير الجنوب)(107) وحمياها كلفــة بالجسوم ، طالبة ديونها بالرسوم ، وعقاربها كثيرة الدبيب ، منغصــة مضاجعة الحبيب ، وخرابها موحش هائل ، وبعد الاقطار ــ عن كثير من الاوطار ــ بهــا ــ حائل ، وعدوها ينتهب ــ فى الفتن ــ أقواتها ، وجرذان

---

103) سدة : السدة : المنصب الرفيع .
104) الشكك : ج شكة ، وهى اللباس يقى لابسه ضربة السلاح .
105) السرد : المنتظم المتتابع .
106) مثل عربى يضرب فى اسناد الاخبار الى مصادرها ، وهو الشطر الاخير من قول الشاعر :
ويعذلنى ابناء سعد فيهم ... وما قلت الا بالذى علمت سعــد
107) زيادة فى (س) .

المقابر تأكل أمواتها . وكانت أولى المنازل بالاغياء ، لو أنها ـ اليوم ـ معدودة في الاحيـــاء (108) .

12 ـ « أغمـــــات » (109)

قلت : فأغمـــــات ؟

قال : بلدة ـ لحسنها ـ الاشتهار ، وجنة تجرى من تحتها الأنهار ، وشمامة تتضوع منها الازهار ، متعددة البساتين ، (123 : ب) طاميــة بحار الزياتين ، كثيرة الفواكه والعنب والتين . خارجها فسيح ، والمذانب فيه تسيح ، وهواؤها صحيح ، وقبولها للغريب شحيح ، وماؤها نمير ، وماء وردها ممد للبلاد وممير . الا أن أهلها يوصفون بنـــوك (110) . وذهول ، بين شبان وكهول ، وخرابها يهول ، وعدوها تضيق ـ لكثرته ـ

108) يرمى بهذا الى ان مراكش قد فقدت مركزها السياسى فى العصر الذى يعيشه ابن الخطيب ، وهو عصر المرينيين ، الذين اتخذوا فاس عاصمة لهـــم ، فتحولوا بذلك عن مراكش ، التى ظلت العاصمة فى عهد كل من المرابطـــين والموحدين . هذا ، والاغياء هو : بلوغ الغاية من الشأن .

109) اغمـــات« Agmat »موقعها قرب مدينة مراكش ، وفى هذه الفترة التى يؤرخ لها ابن الخطيب كانت اغمات عبارة عن مدينتين مواجهتين لبعضهما وهما : اغمات عيلان ، واغمات وريكة ، وكان بينهما خصام مستحكم ، فرق بينهما حتى فى دور العبادة ، وقد انتهى هذا الخلاف فيما بعد ، واندثرت اغمــــات وريكة وبقيت الاخرى ، وذلك فى القرن السادس عشر الميلادى ، وتشتهــر المدينة بوفرة مياهها وكثرة بساتينها ، وبها قبر المعتمد بن عباد ملك اشبيلية زمن الطوائف ، الذى قبض عليه ملك المغرب يوسف بن تاشفين بعد تغلبه عليه عام 480 هـ (1087 م) .
راجع : Discripcion de Africa P. 73. J. Leon Affricano,
وكذا : مراصد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع ، لصفى الدين البغدادى ج 1 ص 98 .

110) نوك : حمـــق .

السهول ، وأموالها ــ لعدم المنعة ــ فى غير ضمان ، ونفوسها لا تعرف طعـــم أمـــــان .

13 ــ « مكـنـاســـة » (111)

قلت : فمدينـــة مكناســـة ؟

قال : مدينة أصيلة ، وشعب المحاسن وفصيلة ، فضلها الله ورعاها ، وأخرج منها ماءها ومرعاها (112) ، فجانبها مريع (113) وخيرهـــا سريع ، ووضعها له ــ فى فقه الفضائل ــ تفريع ، عدل فيها الزمان ، وانسدل الامان ، وفاقت ــ الفواكه ــ فواكهها ، ولا سيما الرمان ، وحفظ ــ أقواتها ــ الاختـــزان ، ولطفت فيها الاوانى والكيـــزان ، واعتـــدل ــ للجسوم ــ الوزان . ودنا ــ من الحضرة (114) ــ جوارها ، فكثر قصادها من الفضلاء وزوارها ، وبها المدارس والفقهاء ، ولقصبتها الابهة

---

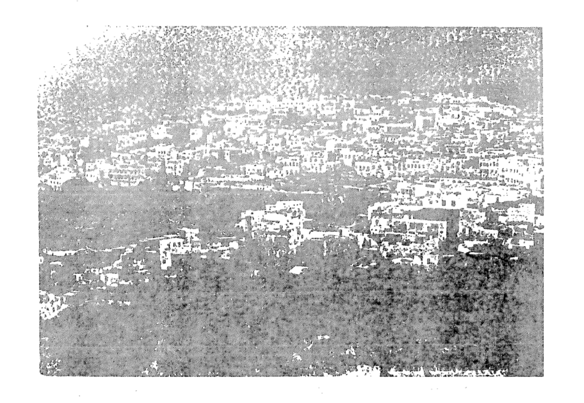
111) مكناس او مكناسة : هى بالاسبانية Mequinez اتخذها المولى اسماعيـــل عاصمة له (1673 ــ 1726 م) وطبعها بطابع عبقريته . تقع جنوب غرب فاس على مسافة 60 كم ، وقد سميت باسم قبيلة مكناسة البربرية التـــى اختطت المدينة اولا ، ويحيط بمكناس نطاق مثلث من اسوار وحصون يبلغ طولها 40 كم . من آثارها العتيقة باب منصور ، والاصطبلات القديمـــة ، وبركة البساتين التى تبلغ مساحلتها 4 هكتارات مربعة ، وهى على غـــرار بركة مراكش . وتعتبر مكناس اليوم خامس مدن المغرب سكانا ، اذ تتقدمها الدار البيضاء والرباط ومراكش وفاس . ويبلغ تعداد السكان حاليا حوالـــى 230 الف نسمة ، وارتفاعها عن سطح البحر بنحو 522 مترا .
راجع : التعريف بابن خلدون ، ص 221 حاشية 3 ، و « الروض الهتون ، فى اخبار مكناسة الزيتون » لابن غازى العثمانى المكناسى (ط. القصر الملكى بالرباط 1966 م) بتحقيق عبد الوهاب بن منصور . وكذا مجلة « الثقافـــة المغربية » ج 7 عدد 7 (1972) تحت عنوان (التخطيط المعمارى لمدينـــة مكناس) للاستاذ محمد المنونى ، ص 21 ــ 56 .

112) اشارة الى قوله تعالى : « اخرج منها ماءها ومرعاها » النازعات : 31 .

113) مريـــع : خصب .

114) يقصد بالحضرة المرينية : فاس العاصمة .

مكنـــاس



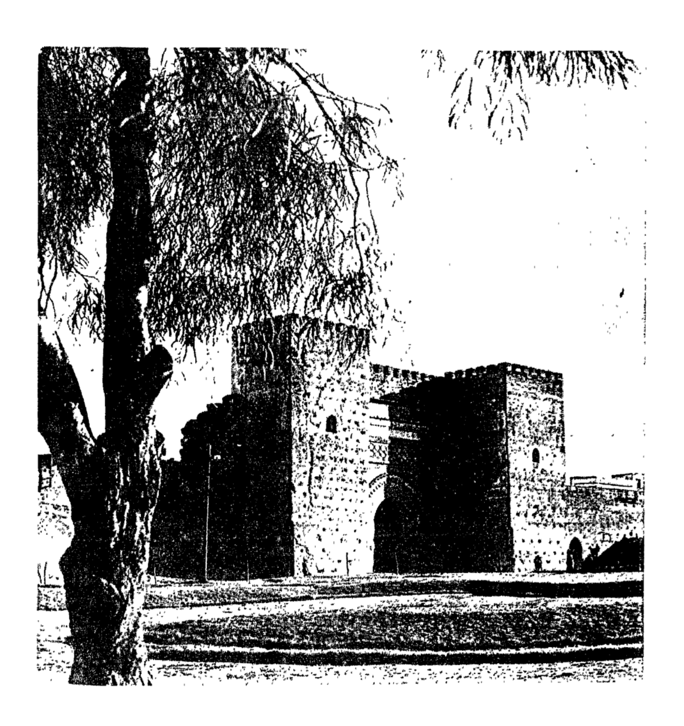
منظـر عـام لمدينة مكنـاس

مكـــنـــــاس



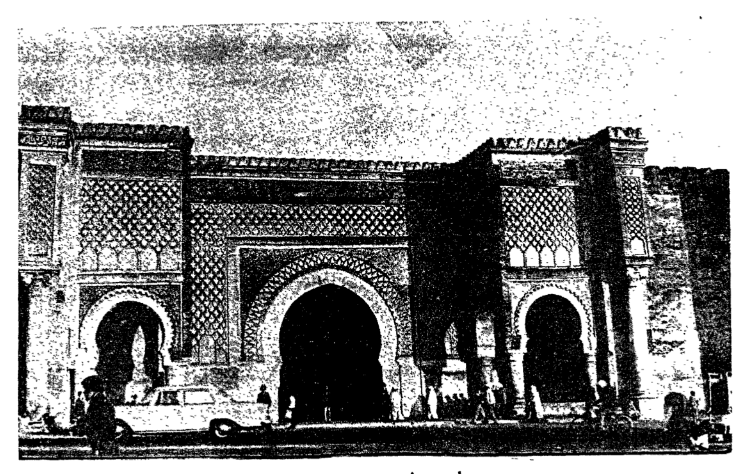
مدخل ضريـــح مولاى اسماعيل

مـكـنـــــاس



بـــــاب الـــريـــــح
أحد المداخل الرئيسية لمدينة مكناس

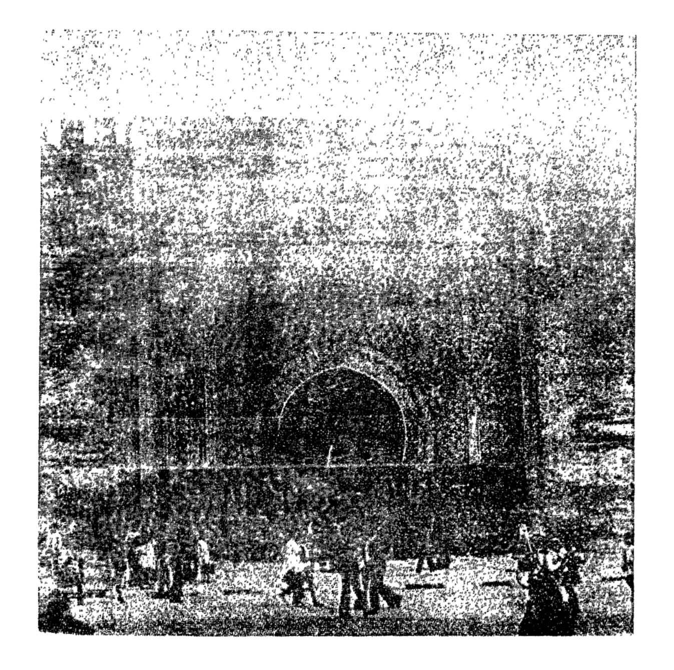
مكناس



باب منصور

المدخل الرئيسى للمنشئات الملكية بالعاصمة الاسماعيلية

مكنـــاس



بـــاب مسجــد الانـــوار

فــــــاس



حيـــث البنى التي نظر اليها عطارد فاستجفاها ، وخاف عليها الوجود ان يصيـــبها بعينـــه الحسود ، فسترها بالفـــور واخفاهـــا ٠٠٠ »

والبهاء ، والمقاصير والابهاء (115) . الا أن طينها ضحضاح (116) ، لذى الظرف فيه افتضاح ، وأزقتها لا يفارقها القذر ، وأسواقها يكثر بها الهـــذر ، (وعقاربها لا تبقـــى ولا تذر) (117) ، ومقبرتها لا يحتج (124 : أ) عن اهمالها ولا يعتـــذر

14 ـ « فـــــــاس » (118)

قلت : فمدينـــة فـــاس ؟

فقـــال :

رعـــى اللـــه قطرا ينبت الغنى وآفاقـــه ظل على الديـــن ممدود

نعم العرين ، لاسود بنى مرين ، ودار العبادة التـــى يشهد بهـــا

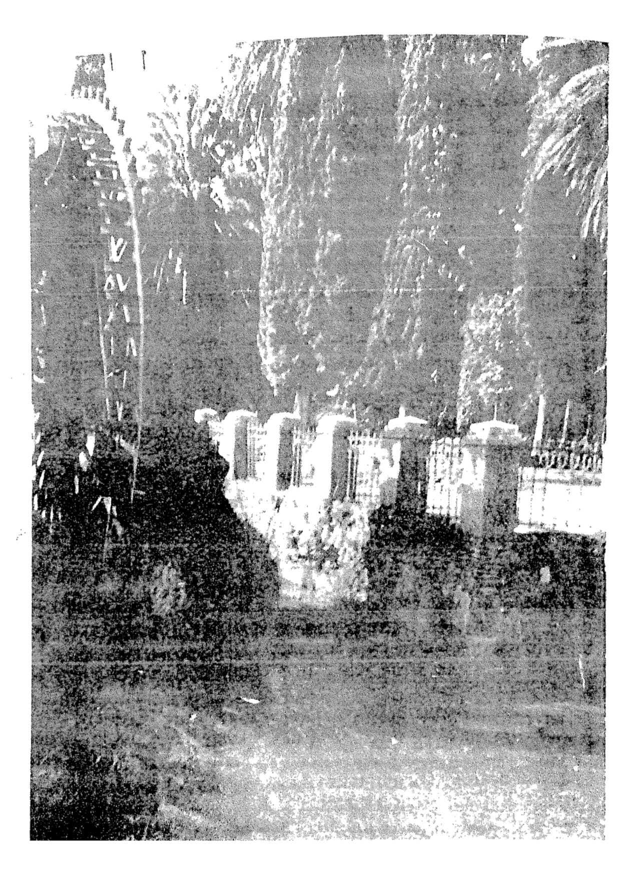
---

115) الابهاء ، ج بهو ، وهو : قاعة الاستقبال .

116) يعنى انتشار الاوحال فى طرقات المدينة .

117) زيادة فى نسختى س ، ط .

118) فاس : هى بالاسبانية Fez اسسها المولى ادريس الثانى عام 808 م ، فهى اقدم عواصم المغرب التاريخية ، وتبعد عن « الرباط » العاصمـــة الادارية حاليا بنحو مائتى كم ، وقد عاصر مؤسسها الامير الاموى الحكم بن هشام بالاندلس ، وهو الذى كان قد نفى وشرد معظم سكان ضاحية الربض فى قرطبة ، اثر الموقعة الشهيرة التى تغلب فيها على هؤلاء الثائرين (202 هـ = 817 م) فلجأ الربضيون الى فاس ، وفيها احيوا الصناعات المختلفة ، وطبعوا المدينة بطابع الفن الاندلسى ، ولاسيما فى المعمار ، حتى سميـــت فاس لذلك « مدينة الاندلسيين » . اما « مدينة القرويين » فهى الضاحية التى عمرها سكان المغرب الادنى ، بعد أن وفدوا من القيروان ، وحيث بنى بهـــا « جامع القرويين » ، الذى أسسته السيدة فاطمة الفهرية الادريسية ، وهو الآن يمثل اقدم جامعات العالم ، ويؤمها الطلاب من كل حدب وصوب .
وتجدر الاشارة الى أن مركز فاس السياسى قد تضاءل فى عصر المرابطين ثم الموحدين ، الذين اتخذوا من مراكش عاصمة ، حتى تغلب بنو مريـــن فأعادوا الى فاس سابق مجدها ، باتخاذهم اياها العاصمة . اما « فـــاس الجديد » فهى التى بناها الامير ابو يوسف يعقوب بن عبد الحق المرينى عام



ناعــورة فى جنــان السبيــل
(فـــــاس)

مطرح الجنة ومسجد الصابرين . (119) أم القرى ، ومأم السرى ، وموقد نار الوغى ونار القرى . ومقر العز الذى لا يهضم ، وكرسى الخلافة الاعظم . والجرية (120) التى شقها ثعبان الوادى فما ارتاعت والابية التى ما أذعنت اذعانها للايالة المرينية ولا أطاعت .

أى كلف وكلف ! ومتفق ومختلف ! ومحاباة وزلف ! وقضيم وعلف ! وخلف عن سلف ! انما الدنيا أبو دلف (121) ! .

674 هـ = 1275 م ، وقد اطلقت عليها عدة أسماء ، مثل المدينة البيضاء ، والبلد الجديد ، والمدينة الجديدة . وتتصل فاس القديمة بفاس الجديدة عبر حدائق ابى الجنود الغناء ، وتعتبر أبواب فاس غريبة الشكل ، كباب الدكاكين ، وباب الساكمة ، وباب السمارين .

هذا وتعتبر المدينة فى مقدمة مدن المغرب ثقافيا وصناعيا وتجاريا ، وتزدهر فيها السياحة ، نظرا لما تشتمل عليه — غير ما ذكرنا — من آثار هامة ، كالمدرسة البوعنانية ذات الساعة الشمسية الغريبة ، ومدرسة العطارين ، ومدرسة المصباحية ، ومسجد الاندلس ، وزاوية المولى ادريس الثانى مؤسس المدينة ، حيث يوجد بها الضريح . كما توجد قبور المرينيين على مرتفع يمكن منه رؤية المدينة فى السفح ، وقد أحاطتها الاسوار الاثرية ، فبدت فتنة الناظرين ..

راجع : ابن خلدون فى « العبر » ج 7 ص 194 — 195 ، والسلاوى فى « الاستقصا » ج 2 ص 22 ، ثم :

ود. عبد الهادى التازى فى : « جامع القرويين » .

وانظر : Descripcion de Africa, P.P. 122-148 (juin Léon Africano).

(119) مسجد الصابرين : أحد المعالم الاسلامية بفاس .

انظر : مجلة البحث العلمى — السنة الثانية عشرة — العدد 14 الصادر بالمغرب .

(120) الجرية : حوصلة الطائر .

(121) هذا التعبير اقتباسا من قول الشاعر العكوك على بن جبلة :

انما الدنيا ابو دلف ... بين مغزاه ومختصره
فاذا ولى ابو دلف ... ولت الدنيا على اثره

وأبو دلف هذا هو القاسم بن عيسى بن ادريس العجلى ، أمير الكرخ ، وسيد قومه ، واحد الاجواد من الشعراء ، كما كان من رجال الرشيد ، ثم ابنه المامون وقد عقد له الكاتب ابن طيفور فصلا خاصا فى كتابه « بغداد فى تاريخ الخلافة العباسية » عند حديثه عن الخليفة المامون ، توفى أبو دلف عام 226 هـ . والشهرة بعدئذ واضحة للرجل فى الغنى العريض ، والكرم النادر ...

سألت عن العالم الثانى (122) ، ومحراب السبع المثانى ، ومعنى المغانى ، ومرقص النادب والغانى ، وارم المبانى(123) ، ومصلى القاصى والدانى . هى الحشر الاول ، والقطب الذى عليه المعول ، والكتاب الذى لا يتأول . بلد المدارك والمدارس ، والمشايـــخ والفهارس ، وديوان الراجل والفارس . والباب الجامع من موطأ المرافق ، ولواء الملك الخافق ، وتنور الماء الدافق ، ومحشر المؤمن والمنافق ، وسوق الكاسد والنافق ، حيث البنى النى نظر اليها عطارد (124) فاستجفاها (125) وخاف عليها الوجود أن يصيبها بعينه (124 : ب) الحسود فسترها بالغور وأخفاها (126) . والاسواق التى ـ ثمرات كل شىء اليها ـ قد جبيت ، والموارد التى اختصت بالخضر وحبيت ، والمنازه المخطوبة ، وصفاح الخلج المشطوبة ، والغدر التى منها أبو طوبة (127) .

بلـــد أعارتـــه الحمامـــة طوقهـــا وكساه ر ريش جناحه ـ الطاووس
فكأنمـــا الانهـــار فيـــه مدامـــة وكـــأن ساحات الديـــار كـــؤوس

اجتمع بها ما أولده سام وحام ، وعظم الالتئام والالتحام ، فلا يعدم فى مسالكها زحـــام . فأحجارها طاحنة ، ومخابزها شاحنـــة ، وألسنتها ـ باللغات المختلفـــة ـ لاحنة ، ومكاتبها مائجـــة ، ورحابهـــا متمائجة ، وأوقافها جارية ، والهمم فيها ـ الى الحسنات وأضدادها ـ متبـــاريـــــة .

---

122) ويقصد بالعالم الاول الاندلس .
123) ارم المبانى : علم المبانى .
124) عطارد : نجم سيار قريب من الشمس .
125) استجفاها : طلب منها البعد ، والتعبير كلية كناية عن علو شان المدينـــة ومنزلتها السامية .
126) يعنى ان موقع المدينة فى السفح المنخفض ، وهو حسن تعليل رائع ، لوقاية المدينة من عين الحسود بموقعها هكذا .
127) أبو طوبه : الريح الطيبة .

بلد نكاح وأكل ، وضرب وركل ، وامتياز من النساء بحسن زى وشكل ، ينتبه بها الباه ، وتتل الجباه ، وتوجد للازواج الاشباه . الى وفور النشب (128) ، وكثرة الخشب ووجود الرقيق ، وطيب الدقيق ، وامكان الادام ، وتعدد الخدام ، وعمران المساجد والجوامع ، وادامة ذكر الله فى المآذن والصوامـــع .

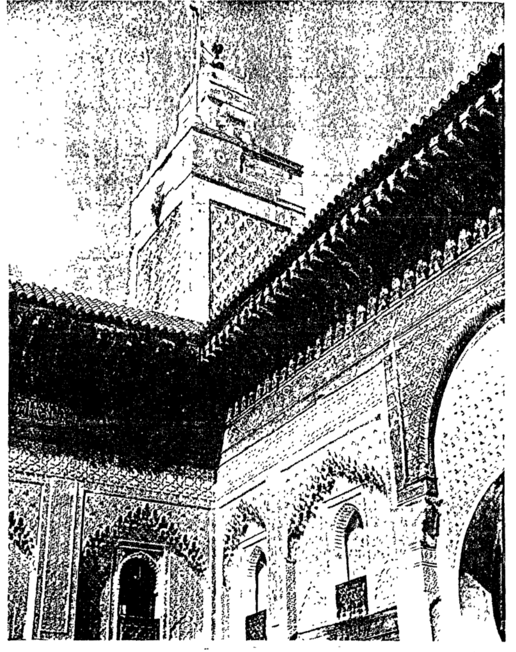
وأما مدينة الملك (129) ، فبيضاء كالصباح ، أفق للغرر الصباح ، يحتقر ــ لايوانها ــ ايوان كسرى ، وترجع العين حسرى ، ومقاعـــد الحرس ، وملاعب (125 : أ) الليث المفترس (130) ، ومنابت الدوح المغترس ، ومدرس من درس أو درس ، ومجالس الحكم الفصل ، وسقائف الترس والنصل ، وأهداف الناشبة أولـــى الخصل (131) . وأواوين الكتاب ، وخزائن محمولات الاقتاب ، وكراسى الحجاب ، وعنصر الامر العجاب .

الى الناعورة التى مثلت من الفلك الدوار مثالا ، وأوحى المـــاء الى كل سماء منها أمرها فأبدت امتثالا ، ومجت العذب البرود سلسالا ، وألفـــت أكوابها الترفـــه والترف ، فـــاذا قاموا الـــى الصلاة قامـــوا كسالـــــى (132) .

---

128) النشب : نوع من الشجر تستعمل من خشبه القسى .
129) مدينة الملك : يقصد بها فاس الجديد .
130) كان من عادة ملوك بنى مرين ان يشهدوا فى حلبة خاصة مصارعة بين الثور والاسد ، وكثيرا ما كانت تنتهى بانتصار الثور . ولعل هذا أصل مصارعـــة الثيران باسبانيا اليوم .
131) الخصل : عود عليه شوك .
132) توراء : قرص مدور متسع المحيط مخروق الوسط ، والناعورة هكذا ، وعليها الاوانى الفخارية ، وبدورانها تحمل المياه ، ثم تلقيها من عـــل كالشهـــــب الراصدة .

فـــــاس



(المدرســة البوعـــنـــانيــة)

وقوراء (133) من قوس الغمام ابتغوا لها
مثـالا أداروهـا عليـه بـلا شـك

فبيـن الثريـا والثـرى سـد جـرمهـا
وللفلـك الـدوار قـد أصبحت تحكـى

تصوغ لجيـن النهـر فى الروض دائمـا
دراهـم نـورقـد خلصن مـن السبـك

وترسـل مـن شهبانهـا ذا ذؤابـة
فتنفى استراق السمع عن حوزةالملك (134)

تذكـرت العهـد الـذى اخترعـت بـه
وحنـت فمـا تنفـك ساجعـة تبكـى

ثم قال : الا أن حر هذه المدينة مذيب ، وساكنها ذيب ، ومسالكهـا وعرة ، وظهائرها مستعرة ، وطينها هائل ، وزحامها حرب وائل (135) . ان نشد الجفاء ناشد ، فهى ضالته المنشودة ، أو حشد أصنافـه حاشـد

---

133) يشير بذلك الى قوله تعالى : « وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا » سورة الجن ، آية : 9 ، وفى هذا ـــ كما فى البيت التالى ـــ حسن تعليل لطيـف .

134) اقتباسا من قوله تعالى : « ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى ، يراءون الناس ، ولا يذكرون الله الا قليـلا » سورة النساء ، آية : 142 .

135) وتعرف بحرب البسوس ، حدثت فى الجاهلية قبيل الاسلام ، وقد قامت بسبب ناقة لدار جساس ، قتلها كليب ، فقتل جساس قاتلها كليبا ، ودارت الحرب بين بكر وتغلب اثر ذلك ، واستمرت قرابة أربعين عاما ، وكانت بينهما فى تلك المدة خمس وقعات شهيرة ، تارة يكون الظهور فيها لبكر ، وتارة لتغلب ، وتارة ينتصفان ، حتى تصالحا بعد أن سقط خيرة القبيلتين وزهرة شبابهما ، فضرب المثل بحرب وائل ، كما قيل فى التطير فى الامثلة العربية : اشأم من البسوس .

(125 : ب) فهي كتيبته المحشودة . الى بعد الاقطار ، وعياث الميازب أوقات الامطار ، والاشتراك في المساكن والديار، على الموافقة والاختيار، وتجهم الوجوه للغريب ، ذي الطرف المريب ، وغفلة الاملس عن الجريب (136) ، ودبيب العقارب ، أرسالا كالقطا القارب (137) . وأهلها يرون لانفسهم مزية الفضل ، ويدينون في مكافأة الصنائع البالغة بالعضل (138). يلقى الرجل أبا مثواه فلايدعوه الى بينه، ولايسمح(139) له ببقله ولا زيته (140) ، فلا يطرق الضيف حماهم ، ولا يعرف اسمهم ولا مسماهم ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وقليل ماهم (141) . ومقبرتهم غير نابهة ، وأجداثها غير متشابهة ، مشربة حيوان ، ومشبعة جرذان ، غير وان (142) .

15 — آقر سلوين (143)

قلت : فما تقول في آقر سلوين ؟

قال : واد عجيب ، وبلد لداعي الايناع مجيب ، مخضر الوهاد ، كثير شجر الجوز والزيتون ، كنفته الجبال الشم ، وحنا عليه الطود كما تحنو

---

136) كناية عن ان اهل المدينة يتميزون ومعروفون ، والغريب حينئذ ظاهر بينهم مهمل ، لا يلقونه كما يلقون بعضا .

137) القطا القارب : القطا الذي يطلب الماء ليلا .

138) العضل : بفتح العين وسكون الضاد ، الشدة .

139) في نسختي (ط ، س) « ولا يسمع » ، وهو ما لا يتناسب والسياق .

140) في نسخة (ط) « ولا بزيته » ، وهو اوفق للعطف باعادة الجار .

141) اقتباسا من قوله تعالى : « قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه ، وان كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم ، وظن داود انما فتناه ، فاستغفر ربه ، وخر راكعا وأناب » سورة ص ، آية : 24 .

142) غير وان : غير مقصر .

143) آقر سلوين : يحتمل ان يكون المراد بها قصبة سلوان ، حيث تقطن قبائل « بني يطفتي » ، بالريف شمال المغرب .

على ولدها الام ، فهواؤها ملائم ، والعنب على الفصـول دائـم . الا أن الشمس لا تطرقه بنوال ، ولا ترمقه الا وقت زوال . قد باء بالحظ الموكوس وانكمش تحت ابط الظل المنكوس ، فجوه عديم الطلاوة (126 : أ) ، وعنبه — للبرد — قليل الحلاوة .

16 — « سجلماســـة » (144)

قلت : فسجلماسة ؟

قال : تلك كورة (145) ، وقاعدة مذكورة ، ومدينة محمودة مشكورة، كانت ذات تقديم ، ودار ملك قديم (146) ، وبلد تبر وأديم ، ومنمى تجر ومكسب عديم (147) . معدن التمر ، بحكمة صاحب الخلق والامر ، تتعدد أنواعه ، فتعيي الحساب . وتجم بها فوائده فتحسب الاقتناء والاكتساب . قد استدار بها — لحلق السور — الامر العجاب ، والقطر الذى تحـار فى ساحته النجاب ، فضرب منه على عذارها الحجاب (148) ، باطنه فيـه الرحمة ، وظاهره من قبله العذاب (149) ، يحيط بها مرحلـة راكـب ،

---

144) سجلماسة : يطلق هذا الاسم على مقاطعة فى جنوب المغرب تسمـى الآن « تافيلالت » .
راجع فى هذا : ياقوت الحموى فى « معجم البلدان » ج 5 ص 41 ، والتعريف بابن خلدون ص 40 حاشية 1 .

145) كورة ، اى بلد به قرى ومساكن ، يقول الحموى فى معجم البلدان « ان الكورة كل صقع يشتمل على عدة قرى ، ولابد لتلك القرى من قصبة او مدينـة او نهر » (ج 1 ص 36) .

146) يقصد دولة « بنى مدرار » التى عاصرت دولة الادارسة ، فقد اتخـذت سجلماسة قاعدة لملكها .

147) اى عديـم النظيـر

148) كناية عن السور المحيط بالمدينة .

149) اقتباسا من قوله تعالى : « يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنـوا : انظرونا نقتبس من نوركم ، قيل : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا ، فضرب بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة ، وظاهره من قبله العذاب » سورة الحديد ، آية : 13 .

ويصيرها سماء مخضرة ذات كواكب . فمنازلها لا تنال بهوان ، وفدنهـا ودمنها تحت صوان ، ونخلها تطل من خلف الجدار ، وتتبوأ الايمان والدار، وحللها مبثوثة بين الدمن، وضياعها تتملك على مر الزمن، وسوائمها آلفة للسمن ، موجودة بنزر الثمن ، وفواكهها جميمة ، ونعمها عميمة ، وسورها حصين مشيد ، وجسرها يعجز عن مثله معتصم ورشيد (150) . وسقيها يخص دار الملك بحظ معلوم ، ويرجع الى وال يكف كـــل (126 : ب) ظلـــوم .

وهى أم البلدان ، المجاورة لحدود السودان ، فتقصدها ــ بالتبر ــ القوافل ، وتهدى الى محرابها النوافل ، والرفاهيـــة بهـــا فاشيـــة ، والنشافى (151) الحلية ناشية (152) . لكنها معركة غبار ، وقتيل عقربها جبار (153) ، ولباسها خامل ، والجفاء بها شامل ، والجو يسفر عن الوجه القطوب ، والمطر معدود من الخطوب ، لبناء جدرانها بالطوب ، والقـــرع برؤوس أهلها عابث ، والعمش (154) فى جفونهم لابث ، والحصا يصيبهم، ويتوفـــر (155) منه نصيبهم .

---

(150) المعتصم والرشيد ، من اشهر واعظم خلفاء بنى العباس ، فالمعتصم هـــو ابو اسحاق محمد بن هارون الرشيد ، 218 ــ 227 هـ (833 ــ 842 م) ، وأما هارون الرشيد فقد حكم من عام (170 ــ 193 هـ ، 786 ــ 809 م) ، ويرمى بهذا الى المبالغة فى عظم شأن الجسر المؤدى الى المدينة .

(151) النشافى الحلية : الاحجار ذات النخاريب ، تستعملها النساء فى الحمامات .

(152) ناشية : ذات رائحة طيبة .

(153) جبار : هدر ، وذهب دم القتيل جبارا ، اى لم يؤخذ له بالقصاص ولا بالدية .

(154) العمش : ضعف بالبصر تصحبه الدموع .

(155) فى نسختى (س ، ط) « يتوقر » ، والصواب فى نسختنا .

17 ـ « تـــازة » (156)

قلت : فتـــازا ؟

قال : بلد امتناع ، وكشف قناع ، ومحل ريع وايناع ، ووطن طاب ماؤه ، (وصـــح)هواؤه ، وبان شرافه واعتلاؤه ، وجلت فيه مواهب الله وآلاؤه . عصير مثل ، وأمر الخصب به ممتثل ، وفواكه لا تحصى ، يماربها (157) البلد الاقصى ، وحبوبه تدوم على الخزن ، وفخاره آية فى لطافة الجرم وخفة الوزن . الا أن ريحه عاصف ، وبرده لا يصفه واصف ، وأهله فى وبال ، من معرة أهل الجبال ، وليوثه مفترسة ، وأخلاق أهلـــه شرســـة

18 ـ غساسـة (258)

قلت : فغساســة ؟

---

156) تـــازة : « Taza »تبعد هذه المدينة المغربية عن فاس بنحو 119 كم ، كما تبعد عن مدينة وجدة بمسافة 230 كم . وتتمتع بموقع جغرافى هام ، ممـــا جعلها تتخذ على مر العصور قاعدة حربية ، هكذا فعل ادريس الثانى ، كمـــا اتخذها عبد المؤمن الموحدى حصنا هاما ، وفى عهد بنى مرين جعل منهـــا ابو يعقوب المرينى قاعدة لغزو تلمسان ، وهى قرب نهر « اناون » علـــى آخر الجبال المحاذية للاطلس المتوسط ، والمواجهة لجبال الريف ، وقـــد تأسـست فى القرن الثامن الميلادى . من آثار المرينيين بها المدرسة والجامع الاعظم ، وهما آيتان فى روعة الفن الاندلسى المغربى .
راجع : التعريف بابن خلدون ص 134 حاشية 2 ، وتاج العروس ج 4 ص 12

157) يمـــار : يمـــون .

158) غساسة : مدينة ذات موقع يقرب من مصب نهر ملوية Mulwia بالبحـــــر المتوسط ، وقد كانت هذه المدينة ـــ يومئذ ـــ مقرا لقبائل بطوية Buthoia ومن قبل فهى مرسى له اهميته ، يقع غرب مليلية ، اجهز عليه الاستعمار الاسبانى عام 1496 م ، ويعتقد أن عبد الرحمن الداخل ابحر من « غساسة » الى الاندلس ، كما نزل بها عبد الله ابن الاحمر آخر ملوك بنى نصر اثـــر سقوط غرناطة (2 يناير 1492 م) ، كما ان هذه المدينة التى اندثرت « كانت

قال : فريسة وأكيلة ، وحشف وسوء كيلة (259) . الا أنها مرسى مرســى مطروق ، بكل ما يروق ، ومرفأ جارية (127 : أ) بحريـــة ، ومحط جبايـــة تجريـــة .

19 ـ تلمســـان (260)

قلت : فمدينة تلمسان ؟

قال : تلمسان مدينة جمعت بين الصحراء والريف، ووضعت فى موضع

المعبر المفضل للمهمات السرية والسريعة » ولذلك يشير ابن الخطيب فى وصفهـــا .
راجع : ابن خلدون فى « العبر » ج 6 ص 101 وانظر : د. عبد الهادى التازى فى مجلة « البحث العلمى » (عدد 24 من السنة 12 ص 13) تحـت عنوان « الثغور المغربية بين المواجهة المسلحة والتدخل الديبلوماسى » .

(159) هذا التعبير كناية عن سوء الخارج من المحاصيل الزراعية ، بالاضافة الى غش اربابها لها ، وبهذا يشير المؤلف الى المثل العربى (أحشفا وســوء كيلة !!) الذى يضرب للظلم يلحق صاحبه مضاعفا .

(160) تذكر المعاجم والمؤرخات ان كلمة « تلمسان » مركبة من « تلم » ومعنــاه : لها ، « وشان » اى : لها شان ، ثم صرفت الشين ـــ بمرور الزمن ـــ الى السين . وذكر المقرى نقلا عن الكاتب ابى زكريا يحيى ابن خلدون من كتابـه « بغية الرواد ، فى اخبار بنى عبد الواد ، وأيام أبى حمو الشامخة الاطواد » ، بعد كلام فى شان البربر ما صورته : « ودار ملكهم وسط بين الصحـــراء والتل ، تسمى بلغة البربر « تلمس » كلمة مركبة من « تلم » ومعناه : تجمع « سن » ومعناه : اثنان ، اى الصحراء والتل ، فيما ذكره شيخنا العلامة ابو عبد الله الابلى ، رحمه الله ، وكان حافظا بلسان القوم » .
وتقع المدينة غرب الجزائر ، وهى مركز للمحافظة التى تسمى باسمها ، ويبلغ عدد سكانها حوالى 85.000 نسمة ، وتشتهر بينابيعها وكرومها وصناعاتها المحلية ، والتى اهمها السجاد والجلود ومعامل النسيج . وللمدينة شهـرة علمية تاريخية ، كما كانت سوقا تجارية هامة ، ولا سيما فى عهد المرابطين الذين اسسوا بها « المسجد الكبير » . وقد اتخذها بنو عبد الواد عاصمـــة المغرب الاوسط ، وقد اخذت شهرتها فى الاضمحلال ، منذ الاحتلال العثمانى. من مشاهير علمائها ابو اسحاق الانصارى (1212 ـــ 1291 م) وغيره من فقهاء العصر الاسلامى الوسيط .
راجع : المقرى فى « نفح الطيب » ج 9 ص 331 ـــ 342 (تحقيق محى الدين عبد الحميد ـــ القاهرة 1369 هـ) .

شريف . كأنها ملك على رأسه تاجه ،وحواليه من الدوحات حشمه وأعلاجه عبادها يدها ، وكهفها كفها ، وزينتها زيانها ، وعينها أعيانها. هواء المقصور بها فريد ، وهواؤها الممدود صحيح عتيد ، وماؤها برود صريد . حجبتها أيدى القدرة عن الجنوب ، فلا نحول فيها ولا شحوب .

خزانة زرع ، ومسرح ضرع . فواكهها عديدة الانواع ، ومتاجرها فريدة الانتفاع ، وبرانسها رقاق رفاع .

الا أنها بسبب حب الملوك (161) ، مطمعة للملوك ، ومن أجل ، مغلوبة للامرا . أهلها ليس عندهم (162) جمعها الصيد فى جوف الفرا الراحة ، الا فيما قبضت عليه الراحة ، ولا فلاحة ، الا امن أقام رسم الفلاحة . ليس بها لسع العقارب ، الا فيما بين الاقارب ، ولا شطارة (163) الا فيمن ارتكب الخطارة (164)

ثم لما وصل الى هذا الحد ، نظر الى حاج السوق (165) قد أفاض ، ومزاده قد أعمل فيه الانفاض ، وعلو الاصوات به قد صار الى الانخفاض، فقال : وجب اعتناء بالرحيل واهتمام ، وكل شىء الى تمام . ومددت يدى الى الوعاء فخرقته ، والى العين فأرقته ، وقلت له : لاحكمنك من كرام بنى الاصفر ، فى العدد الاوفر ، ماثلة فى اللباس المزعفر ، فلما خضب كفيه بحنائها ، وحصلت النفس على استغنائها ، استدنانى ، وشبك بنانه ببنانى، وقال : لاحبط عملك ، ولا خاب أملك ، ولا عدم — المرعى الخصيب —

---

161) حب الملوك فاكهة صيفية ، ولاسيما فى مناطق الجزائر والمغرب ، ويقام « مهرجان » خاص فى مدينة صفرو المغربية فى موسم هذه الفاكهة حتى الآن.

162) اشارة الى المثل المشهور « كل الصيد فى جوف الفرا » .

163) الشطارة ، بفتح الشين ، الخبث ، وتقول ، « شطر فلان شطارة — من باب ضرب — فهو شاطر » وذلك اذا أعيا أهله خبثا .

164) الخطارة : ما يراهن عليه وهو السبق .

165) حاج السوق : المشترى بالسوق ، والمحتاج فيه .

هملك ، فنعم مغلى البضائع ، وحافظ الفضل الضائع ، ومقتنى الفوائد ، ومعود العوائد . واستثبت مخيلته ، فاذا الشيخ وتلميذه ، وحمـــاره ونبيذه ، قد تنكر بالخضاب المموه ، والزى المنوه ، وعاث بخد الغلام الشعر المشوه . فقلت : هيه (166) ، أبت المعارف أن تتنكر ، والصباح أن يجحـــد أو ينكر ، كيف الحال بعدى ؟ وما اعتذارك عن اخلاف وعدى ؟ فقـــــال :

خـــذ مـــن زمانـــك مـــا تيســـر ... واتـــرك بجهـــدك مـــا تعســـر

ولـــرب مجمـــل حـــالـــة ... ترضـــى بـــه مـــا لـــم يفســـر

والـــدهـــر ليـــس بـــدائـــم ... لا بـــد أن سيســـوء ان ســـر

(127 : ب) واكتم حديثك جاهدا ... شمـــت المحـــدث أو تحســـر

والنـــاس آنيـــة الزجـــاج ... اذا عثـــرت بـــه تكســـر

لا تعـــدم التقـــوى ، فمـــن ... عـــدم التقى فى النـــاس أعسر

واذا امـــرؤ خســـر الالـــه ... فليس خلـــق ــ منـــه ــ أخســـر

ثم ضرب جنب الحمار ، واختلط فى الغمار (167) ، وتركنـــى أتقرى الآثار ، وكل نظيم (168) فالى انتثـــار .

تمـــت والحمـــد للـــه (169)

---

166) هيه : كلمة تقال لطلب الاستزادة .

167) الغمار : زحمة الناس .

168) فى نسختى س ، ط « نظم » ، ولعل الصواب فى نسختنا ، اذ فعيل هنا بمعنى مفعول اى : منظوم

169) زيادة ــ فيما اعتقد ــ من وضع الناسخ .

مصادر التحقيق
والدراسة

أ ـــ المصــادر العــربيــة

1) **ابن الاحمـــر :** (الامير ابو الوليد اسماعيل بن يوسف النصرى)
(ت. 810 هـ ـــ 1325 م)
(2) نثير فرائد الجمان فى نظم فحول الزمان
دراسة وتحقيق : محمد رضوان الدايـــة (بيروت 1967 م)
(1) نثر الجمان فى شعر من نظمنى واياه الزمان
ـــ مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم 1863 ـــ أدب

2) **ابن بطوطة :** (ابو عبد الله محمد عبد الله الطنجـــى) .
(ت. 779 هـ ـــ 1377 م)
تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار ج 2 (القاهرة 1938)

3) **ابن الخطيب :** (لسان الدين ابو عبد الله محمد)
(ت. 776 هـ ـــ 1374 م)
(1) الاحاطة فى اخبار غرناطة
نسخة خطية بالاسكوريال رقم 1673 ونسختان خطيتان بالاكاديمية الملكية التاريخية بمدريد تحت رقمى 34 ، 142 وتوجد النسخـــة مطبوعة فى جزاين (القاهرة 1319 هـ) كما توجد نسخة خطية أخرى برواق المغاربة بالازهر . وقد نشر الاستاذ عبد الله عنان الجـــزء الاول من كتاب الاحاطة فى مجموعة ذخائر العرب .
(ب) نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب ،
تحقيق الدكتور احمد مختار العبادى القاهرة ـــ 1948 م)
(ج) ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب ، مخطوط بالاسكوريال رقم 1825 وقد نشر جزءا كبيرا منه العالم الاسبانى جاسبار ريميرو تحـــت عنوان :
Gaspar Remiro. Correspondencia diplomatica entre granada y Fez en el siglo XLV.
(د) اعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام
نشره ليفى بروفنسال فى طبعتين (رباط 1934) ، بيروت 1956 .
نشر محمد بن تاويت الطنجى ، القاهرة 1951 .
(هـ) كناسة الدكان بعد انتقال السكان
نشر وتحقيق د. محمد كمال شبانه ـــ دار الكتاب العربى بالقاهرة (1347 هـ)
(س) رقم الحلل فى نظم الدول (تونس 1317)

4) **ابن خلــدون :** (عبد الرحمن بن محمد)
(ت. 808 هـ — 1405 م)
أ — المقدمة (نشر مصطفى محمد بالقاهرة)
ب — كتاب العبر وديوان المبدأ والخبر (7 اجزاء بما فى ذلك المقدمة) ، القاهرة 1284 .
ج — التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا
نشر محمد بن تاويــت الطنجى ، القاهرة 1951

5) **الادريســى :** (صفة المغرب وارض السودان ومصر والاندلس) عن (نزهة المشتاق) نشر دوزى ودى خويه (ليدن 1866 م)

6) **ابن غازى :** (محمد بن احمد العثمانى المكناسى)
(841 — 919 هـ)
(الروض الهتون فى اخبار مكناسة الزيتون)
تحقيق عبد الوهاب بن منصور (الرباط 1964)

7) **ابن القاضــى** (احمد بن محمد بن أحمد)
عاش فى القرن السابع عشر الميلادى .
أ — جذوة الاقتباس فيمن حل من العلماء مدينة فاس
(بفاس 1309) .
ب — درة الحجال فى غرة اسماء الرجال 2 ج
(نشر علوش ، رباط 1934 م)

8) **ابو نواس :** (ابو الحسن بن هانىء)
(ت. 813 م — 198 هـ)
ديوان ابى نواس بتحقيق « ايفالد فاغر » — (طبعة القاهرة 1958)

9) **الجاحــظ :** (ابو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى)
(ت. 255 هـ — 868 م)
« البيان والتبيين »
تحقيق عبد السلام هارون طبعة (القاهرة 1948 م)

10) **الجواليقى** (منصور بن احمد الخضر)
« المعرب من الكلام الاعجمى على حــروف المعجــم » .
تحقيق احمد محمد شاكر (دار الكتب المصرية بالقاهرة 1361 هـ)

11) (**جمال** : الدين محمد بن سالم بن نصر الله)
(ت. 697 هـ — 1394 م)
تجريدة الاغانــى للاصبهانــى

12) **الحميــــرى** : (ابن عبــد المنعــم)

عاش فى القرن الثامن الهجـــــرى .
الروض المعطار فى خبر الاقطار .
نشره ليفى بروفنســــال .
(ليدن 1938)

13) **السباعـــى** : (بيومـــى)

« تاريخ القصة والنقد فى الادب العربى »
(القاهـــرة 1956) .

14) **الســـلاوى** : (شهاب الدين محمد بن خالد الناصرى)

ت. 1319 هـ — 1901 م
الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى (4 اجزاء فى مجلدين)
القاهرة 1894 م ..

15) **شبانــه** : (دكتور محمد كمال احمد)
يوسف الاول ابن الاحمر ، سلطان غرناطة (القاهرة 1969 م)

16) **الطبـــرى** : (ابو جعفر محمد بن جرير)
(ت 922 م — 310 هـ)
« تاريخ الامم والملوك » (12 جزءا طبعة القاهرة 1908)

17) **عنـــان** : (محمد عبد الله) معاصر
(لسـان الدين ابن الخطيب) .
(القاهرة 1968 م)

18) **القلقشندى** : (ابو العباس احمد بن على)
ت 821 هـ — 1418 م
صبح الاعشى فى صناعة الانشا 14 جزءا
(القاهرة 1212 — 1219 هـ)

المصادر الاجنبية

1. Ballesteros, A. :
Historia De Espana, Tomo III.
(Barcelona-Buenos Aires 1948)

2. GARIOS DE LUNA, JOSE :
Historia De Gibraltar (Madrid 1944).

3. LEVI PROVENCAL. E. :
La penisule iberique Du Moyen-Âge d'après le Kitab Al-Rawd al Mitar, D'Ibn Abd al Munim al Himyari. (Tetuan 1950).

4. LEON AFRICANO, JUAN (A) HASAN IBN MUHAMMAD ALWAZZAN AL-FASI) :
Description De Africa y De las cosas natables que en ella se encuentran.
(INSTITUTO GENERAL FRANCO-TETUAN 1952)

5. MULLER, MARCUS JOSEPH :
Beitrage zur Geschichte der westlichen araber (Munchen 1866)

6. SECO DE LUCENA, LOUIS :
Sobre el viaje de Ibn Battuta al Reinocle Granada (Al Andalus, Vol, XVI 1951).

7. SIMONET, FRANCISCO JAVIER :
Descripcion del Reine de Granada bajo la dominacion de los Nazaritas.
(Madrid 1860).

الفهـــارس الموجـودة بالكـتـاب

* * *

الصفـحـة

فهـــرس عـــام لمحتـــويات الكتاب

الصفحـــة

فهرست المدن التي ورد وصفها في المعيار

*

أ ــ المدن الاندلسية :

ب ـ المدن المغربية :

فهـرست الخرائـط والصور والوثائق

---

1) الخـــرائــط

2) الصـــور

ا ــ الانــدلس :

ب — المغــــرب

3) الــوثــائــق

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ شارع بورسعيد / الطاهر
ت : ٥٩٢٢٦٢٠ فاكس ٥٩٣٦٢٧٧٠